فهم ، بوصفهم مفكري البرجوازية الصغيرة الحقيقيين ، لا يريدون القضاء على الاستثمار بل يريدون تلطيفه ، لا يريدون النضال بل يريدون التوفيق . ان مثلهم العليا الكبرى التي يرغون ويزبدون على اساسها بفائق الحمية ضد الاشتراكيين-الديموقراطيين المحدودين ، لا تمضي الى ابعد من الفلاحين «الحسني الحال» الذين يسددون ما عليهم من «اتاوات» للملاكين العقاريين وللرأسماليين ، شرط ان يعاملهم الملاكون العقاريون والرأسماليون بانصاف .

مثال آخر لقد عرض السيد يوجاكوف ، في مقاله المعروف بشكل كاف : «معدلات الملكية العقارية الشعبية في روسيا» («روسكايا ميسل» ، ١٨٨٥ ، العدد ٩) مفاهيمه بصدد المقاييس التي يجب ان ترتديها الملكية العقارية «الشعبية» ، اي ، حسب اصطلاحات ليبيراليينا وتعابيرهم ، ملكية تنفي الرأسمالية والاستثمار . ونحن الآن ، بعد هذا التفسير الممتاز الذي فسر به السيد كريفنكو الامور ، نعرف انه كان يعتنق ايضا وجهة نظر «ادخال الرأسمالية في حياة الشعب» وكان يعتبر ان الحد الادنى للملكية العقارية «الشعبية» يتقوم في حصص من الارض الممنوحة من شأنها ان تؤمن «المؤونة من الحبوب والمدفوعات» * ، بينما يمكن على حد زعمه ، تأمين الباقي بواسطة «مورد للرزق»

---

* لكي ابين العلاقة بين هذه النفقات والقسم الباقي من الميزانية الفلاحية ، استشهد مرة اخرى بنفس الميزانيات الـ٢٤ في قضاء اوستروغوجسك ان متوسط نفقات العائلة ٤٩٥,٣٩ روبلا (عيناً ونقداً) منها ١٠٩,١٠ روبلات لعلف الماشية ، و١٣٥,٨٠ روبلا للماكولات النباتية والضرائب ، والباقي ، اي ٢٥٠,٤٩ روبلا للنفقات الاخرى للماكولات غير النباتية والالبسة وادوات الزراعة وبدل استئجار الارض وخلافه اما علف الماشية فيدرجه السيد يوجاكوف في حساب حقول الاعشاب والاراضي المساعدة الثانوية .

وبكلمة اخرى ، لقد سلم صراحة بوضع كان الفلاح في ظله ، مع احتفاظه بصلته بالارض ، يتعرض لاستثمار مزدوج ، جزئياً من جانب الملاك العقاري ـ عن طريق «حصة الارض الممنوحة» ، وجزئياً من جانب الرأسمالي عن طريق «مورد الرزق» ان هذا الوضع ، وضع صغار المنتجين الذين يتعرضون لاستثمار مزدوج والموضوعين فضلاً عن ذلك في ظروف معيشية تولد حتماً الرضوخ والخبل ، وتقضي عند طبقة المظلومين على كل امل لا في النصر وحسب ، بل ايضاً في النضال ، ـ ان هذا الوضع نصف القروسطي * ـ هو nec plus ultra الافق الفكري والمثل العليا عند «اصدقاء الشعب» وحين تطورت الرأسمالية بسرعة هائلة في سياق تاريخ روسيا كله منذ الاصلاح الزراعي ، وشرعت تنتزع من الجذور هذه الدعامة لروسيا القديمة ـ اي الفلاحين البطريركيين ، انصاف الاقنان ، تنتزعهم من الوضع القروسطي ، نصف الاقطاعي ، وتضعهم في وضع جديد ، رأسمالي صرف ، مجبرة اياهم على مغادرة اماكنهم المألوفة وعلى التيهان في عموم روسيا بحثاً عن العمل ، ومحطمة خضوعهم «لرب العمل» المحلي ، ومبينة اين يقوم اساس الاستثمار بوجه عام ، الاستثمار الطبقي ، لا النهب من جانب صل بعينه ، ـ حين شرعت الرأسمالية تجتذب بالجملة البقية من السكان الفلاحين ، المرهقين والمضغوطين في حالة كحالة المواشي ، الى دوامة حياة اجتماعية وسياسية اعقد فاعقد ، حينذاك اطلق فرساننا العويل والنواح بشأن انهيار الدعائم وتحطمها وهم لا يزالون يواصلون الآن العويل والنواح على ذلك الزمن الغابر الطيب ، مع انه لا بد للمرء الآن ، على ما يبدو ، ان يكون اعمى لكي لا يرى الجانب الثوري من نمط الحياة الجديد هذا ، لكي لا

---

* نسبة مركبة الى القرون الوسطى . المعرب .

يرى كيف تخلق الرأسمالية قوة اجتماعية جديدة لا تمت بـاي صلة الى النظام الاستثماري القديم ، وفي مستطاعها ان تناضـل ضده .

ولكننا لا نلحظ عند «اصدقاء الشعب» اي رغبة على الاطلاق في تغيير النظم الحالية تغييراً جذرياً فهم يكتفون تماما بالتدابير الليبيرالية في ظل هذه النظم ، والسيد كريفنكو ، سعياً منه لاختراع تدابير كهذه ، يقدم البرهان على كفاءات ادارية حقيقية جديرة ببومبادور (٤٩) روسي .

فهو في حديثه عن ضرورة القيام «بدراسة جدية وتحويل جذري» «لصناعتنا الشعبية» ، يقول «ان هذه المسألة تتطلب على العموم بحثاً خاصاً وتقسيم الصناعات الى فئات من الصناعات قابلة للتكيف على حياة الشعب (كذا !!) والى صناعات يلقـى تكيفها مصاعب جدية ما»

ان مثالا عن تقسيم كهذا الى فئات يقدمه لنا السيد كريفنكو نفسه ، اذ يقسم الصناعات الحرفية الى صناعات لا تغدو صناعات رأسمالية والى صناعات صارت رأسمالية ، والى صناعـات يمكنها «ان تناضل في سبيل وجودها ضد الصناعة الكبيرة»

ويقرر الاداري «في الحالة الاولى ، يستطيع الانتاج الصغير ان يوجد بحرية» ،ـ ان يكون حراً من السوق التي تقسم تقلباتها المنتجين الصغار الى برجوازية وبروليتاريا ؟ ان يكون حراً مـن توسع الاسواق المحلية ومن تمركزها في سوق كبيرة ؟ ان يكون حراً من تقدم التكنيك ؟ او لعل تقدم التكنيك هذا ـ في ظل الاقتصاد البضاعي ـ يمكنه الا يكون رأسمالياً ؟ ـ في الحالة الاخيرة ، يطالب المؤلف «بتنظيم الانتاج في شكل كبير كذلك» ، ويقول «واضح انه ينبغي هنا تنظيم الانتاج في شكل كبير كذلك ، ينبغي رأسمال اساسي ورأسمال متداول ، وآلات ، الخ . او التعويض عن هذه

الشروط بشروط اخرى التسليف الرخيص ، الغاء الوساطة التي لا حاجة اليها ، بنيان اقتصادي قوامه الارتيل ، امكانية الاستغناء عن ربح رب العمل ، تامين التصريف ، اختراع محركات ارخص وغير ذلك من التحسينات التكنيكية او ، اخيراً ، تخفيض الاجور بعض الشيء ، اذا كانت تعوضه فوائد اخرى»

ان لهذه النظرة دلالة بالغة لوصف «اصدقاء الشعب» ذوي المثل العليا الكبرى في الاقوال والليبيرالية المبتذلة في الافعال فان فيلسوفنا ، كما ترون ، يبدأ راساً من امكانية الاستغناء عن ربح رب العمل ومن تنظيم اقتصاد كبير ، لا اكثر ولا اقل . رائع : فان **هذا** بالضبط ما يريده الاشتراكيون-الديموقراطيون كذلك ولكن كيف يريد «اصدقاء الشعب» بلوغ هذا ؟ فلأجل تنظيم انتاج كبير بدون ارباب عمل ، يجب ، اولا ، القضاء على التنظيم البضاعي للاقتصاد العام والاستعاضة عنه بتنظيم جماعي ، شيوعي ، لا تكون فيه السوق ضابط الانتاج ، كما هو الحال الآن ، بل المنتجون انفسهم ، مجتمع العمال نفسه ، لا تخص فيه وسائل الانتاج الافراد ، بل المجتمع كله ان هذه الاستعاضة عن **شكل التملك** الخاص بالشكل الجماعي تقتضي ، بالطبع ، ان يصار **مسبقاً** الى تحويل **شكل الانتاج** ، تقتضي دمج عمليات انتاج المنتجين الصغار ، المبعثرة ، الصغيرة ، المنعزلة ، **في عملية انتاجية اجتماعية واحدة** ، تقتضي ، بكلمة ، تلك الشروط المادية التي تخلقها الرأسمالية بالذات ولكن «اصدقاء الشعب» لا يعتزمون اطلاقا الاعتماد على الرأسمالية فاي سلوك يعتزمون انتهاجه ؟ هذا غير معروف . بل انهم لا يشيرون حتى الى الغاء الاقتصاد البضاعي اغلب الظن ان مثلهم العليا الكبرى عاجزة كلياً عن تخطي نطاق هذا النظام ، نظام الانتاج الاجتماعي ثم انه ، لاجل الغاء ارباح ارباب العمل ، لا بد من انتزاع املاك ارباب العمل الذين تنجم «ارباحهم»

من كونهم بالضبط يحتكرون وسائل الانتاج ولانتزاع امـــلاك اقطاب وطننا ، لا بد من حركة ثورية شعبيـــة ضد النظـــام البرجوازي ، وهذه الحركة لا يستطيع القيام بها غير البروليتاريـا العاملة التي لا تربطها بهذا النظام اي رابطة ولكن «اصدقـــاء الشعب» لا يرتاون اي نضال ، ولا يخطر في بالهم ابداً ان مـــن الممكن ومن الضروري وجود مشرفين اجتماعيين غير الهيئات الادارية التابعة لارباب العمل هؤلاء بالذات وواضح انهم لا يعتزمـــون اطلاقاً الوقوف جدياً ضد «ارباح رب العمل» : فان السيد كريفنكو قد زل لسانه بكل بساطة واذا به يصلح زلله على الفور : يمكن كذلك «التعويض» عن شيء مثل «امكانية الاستغناء عن ربح رب العمل» «بشيء ما آخر» ، وعلى وجه الضبط بالتسليف ، وتنظيم التصريف ، والتحسينات التكنيكية وكل شيء يترتب على خير ما يرام فعوضاً عن شيء مهين للسادة ارباب العمل كالغاء حقوقهم المقدسة في «الربح» ، تظهر تدابير ليبيرالية دمثة لا تفعل غير ان تضع في ايدي الرأسمالية اسلحة امضى من اجل النضال ، لا تفعل غير ان تقوي وتوطد وتطور برجوازيتنا «الشعبية» الصغيرة ولكي لا يبقى اي شك في ان «اصدقاء الشعب» لا يدافعون الا عن مصالح هذه البرجوازية الصغيرة ، يعطي السيد كريفنكو ايضاً هذا الايضاح الرائع التالي يبدو ان الغاء ربح رب العمل يمكـــن ان «يعوض» بـ«تخفيض الاجور» !!! قد يخيل من النظرة الاولى انه هذيان مطبق ولكن كلا فان هـــذا تطبيق منسجم لافكار البرجوازية الصغيرة ان المؤلف يراقب واقع نضال الرأسمـــال الكبير ضد الرأسمال الصغير واذا به ، بوصفه من «اصدقـــاء الشعب» الحقيقيين ، يقف ، بالطبع ، الى جانب **الرأسمـال** الصغير وقد سمع في هذا الصدد ان تخفيض الاجور وسيلة من اقوى وسائل النضال في ايدي الرأسماليين الصغار ، ــ وهذا امـر

ملحوظ تماماً وفعلا في كثرة كثيرة من المؤسسات في روسيا ايضاً الى جانب تمديد يوم العمل . واذا به ، رغبة منه في انقاذ صغار ... **الرأسماليين** ، مهما كلفه الامر ، يقترح «تخفيض الاجور بعض الشيء ، اذا كانت تعوضه فوائد اخرى» ! ان السادة ارباب العمل ، الذين قيلت في البدء بصدد «ربحهم» ، اشياء غريبة ، على ما بدا ، يمكنهم ان يطمئنوا تماماً . واني اعتقد انهم ينصبون بملء الخاطر هذا الاداري العبقري الذي يضع **ضد** ارباب العمل مشروعاً بتخفيض الاجور وزيراً للمالية

وفي الامكان ايراد مثال آخر يبين كيف ان البرجوازي الاصيل يتكشف من الاداريين الليبراليين الانسانيين في «روسكويه بوغاتستفو» ما ان يتناول الامر قضايا عملية ما ففي «اخبار الحياة الداخلية» (العدد ١٢ من «روسكويه بوغاتستفو») ، يدور الكلام عن الاحتكار . يقول الكاتب :

«الاحتكار والسنديكات ، هذا هو المثل الاعلى الذي ترمي اليه الصناعة المتطورة» وهو يعجب فيما بعد لظهور هاتين المؤسستين عندنا ايضاً ، رغم انه لا توجد عندنا «مزاحمة قوية بين الرساميل» . «فان صناعة السكر وصناعة البترول على السواء لم تبلغا بعد اطلاقاً درجة خاصة من التطور . وان استهلاك السكر والكيروسين عندنا لا يزال تقريباً في حالة جنينية ، اذا اخذنا بالحسبان الكمية الطفيفة من هذين المنتوجين العائدة عندنا الى كل مستهلك بالقياس الى البلدان الاخرى قد يخيل ان ميدان تطور هذين الفرعين الصناعيين لا يزال شاسعاً جداً وان في مستطاعه ان يستوعب ايضاً كثرة ضخمة من الرساميل»

مما له دلالته ان الكاتب نسي هنا بالضبط ، في هذه المسألة العملية ، الفكرة المفضلة لدى «روسكويه بوغاتستفو» والقائلة بتقلص السوق الداخلية . وهو مضطر الى الاعتراف بان

هذه السوق تجد امامها ايضا مجالا شاسعا للتطور ، لا للتقلص وهو يخلص الى هذا الاستنتاج باجراء مقارنة مع الغرب حيث الاستهلاك اكبر لماذا ؟ ـ لان مستوى الثقافة اعلى . ـ ولكن اين تكمن الاسس المادية لهذه الثقافة ان لم تكن تكمن في تطور التكنيك الرأسمالي ، في نمو الاقتصاد البضاعي والتبادل اللذين يفضيان في حالات متزايدة اكثر فاكثر الى تصادم الناس بعضهم ببعض ، ويقضيان على انعزال بعض الاماكن القروسطي ؟ ففي فرنسا ، مثلا ، قبل الثورة الكبرى ، اي قبل ان تنقسم طبقة الفلاحين نصف القروسطية نهائياً الى برجوازية ريفية وبروليتاريا ، أولم تكن الثقافة في مستوى ثقافتنا لا ارقى ؟ ولو ان الكاتب نظر الى الحياة الروسية بمزيد من الانتباه ، لكان لاحظ من كل بد ، فيما لاحظ ، ان حاجات السكان الفلاحين في المناطق التي تتصف برأسمالية متطورة اعلى منها في المناطق الزراعية الصرف وهذا ما يلاحظه بالاجماع جميع البحاثة الذين يدرسون صناعتنا الحرفية في جميع الحالات التي تبلغ فيها هذه الصناعات درجة من التطور تطبع معها بطابعها الصناعي الحرفي كل حياة السكان *

ان «اصدقاء الشعب» لا يولون هذه «التوافه» اي انتباه لأن الامر هنا يُفَسَّر من وجهة نظرهم بالثقافة «بكل بساطة» او ، على العموم ، باشتداد تعقد الحياة ، حتى انهم لا يهتمون بمعرفة الاسس المادية لهذه الثقافة ولهذا التعقد . ـ ولكنهم لو نظروا على الاقل الى اقتصاد ريفنا ، لترتب عليهم الاعتراف بان

---

* على سبيل المثال اشير على الاقل الى حرفيي بافلوفو ، مقارناً اياهم مع فلاحي القرى المجاورة انظر مؤلفات غريغورييف وآنينسكي . ـ ومرة اخرى ، اورد عمداً مثال قرية يقوم فيها ، على ما يزعم ، «نظام شعبي» خاص .

تمايز الفلاحين الى برجوازية وبروليتاريا هو الذي يخلق السوق الداخلية

واغلب الظن انهم يعتقدون ان نمو السوق لا يعني بعد اطلاقاً نمو البرجوازية فان محرر اخبار الحياة الداخلية المذكور اعلاه يواصل تحليله قائلا «ان الاحتكار عندنا ، نظراً لضعف تطور الانتاج بوجه عام ، ونظراً لانعدام المبادرة وروح المبادهة ، هو كابح جديد لتطور **قوى البلد**» وفي سياق الحديث عن احتكار التبغ ، يحسب الكاتب ان هذا الاحتكار «سيسحب ١٥٤ مليون روبل من التداول **الشعبي**» وهنا يغيب مباشرة عن باله ان الاقتصاد البضاعي هو اساس نظمنا الاقتصادية وان البرجوازية هي قائدته في بلدنا كما في اي بلد آخر وعوضاً عن التحدث عن البرجوازية التي يضيّق عليها الاحتكار ، يتحدث الكاتب عن «البلد» ، وعوضاً عن الحديث عن التداول البضاعي ، البرجوازي ، يتحدث عن التدوال «الشعبي» * ان البرجوازي لعاجز اطلاقاً عن ادراك الفرق بين هذه المفاهيم ، مهما كان هذا الفرق شاسعاً ولكي ابين الى اي حد يتضح فعلا هذا الفرق ، استشهد بمجلة نافذة الرأي بين «اصدقاء الشعب» ، اي بمجلة «اوتيتشيستفينييه زابيسكي» ففي مقال «البلوتوقراطية واسسها» (العدد ٢ ، عام ١٨٧٢) ، نقرأ ما يلي :

«يستفاد من رأي مارلو ان ابرز علائم البلوتوقراطية ، انما هي حبها لشكل الدولة الليبيرالي ، او على الاقل ، لمبدأ حرية الكسب . فاذا اخذنا هذه العلامة وتصورنا ما كانت عليه الحال منذ

---

* هذه الطريقة في التعبير انما يجب لوم الكاتب عليها لوماً اشد خصوصا وان «روسكويه بوغاتستفو» تحب ان تستعمل كلمة «شعبي» خلافاً لكلمة «برجوازي» .

٨ سنوات او ١٠ ، لرأينا اننا احرزنا نجاحات هائلة في مضمار الليبيرالية وأيا كانت الجريدة او المجلة التي اخذت ، فانها جميعها ، على ما يبدو ، تمثل المبدأ الديموقراطي الى هذا الحد او ذاك ، وجميعها تحارب في سبيل مصالح الشعب ولكن الى جانب المفاهيم الديموقراطية وحتى وراء ستارها (**ولاحظوا** هذا) ، تتجلى الميول البلوتوقراطية في كل لحظة ، سواء عن قصد او عن غير قصد »

وعلى سبيل المثال ، يورد الكاتب الرسالة التي وجهها تجار سانت-بطرسبورغ وموسكو الى وزير المالية ، وفيها تعرب هذه الفئة الفائقة الاحترام من البرجوازية الروسية عن شكرها وامتنانها لانه « ارسى الوضع المالي في روسيا على اكبر ما يمكن من اتساع النشاط الخاص ، الوحيد المثمر » ويخلص الكاتب الى القول « لا ريب في وجود العناصر والمساعي البلوتوقراطية في مجتمعنا ، وبقدر كاف »

وانت ترى ان اسلافك في ذلك العهد الذي ولى منذ زمن بعيد ، عهد كانت الانطباعات عن الاصلاح التحريري العظيم لا تزال حية وطرية (هذا الاصلاح الذي كان لا بد له ، كما اكتشف السيد يوجاكوف ، ان يمهد السبل الهادئة والقويمة امام تطور الانتاج « الشعبي » ولكنه لم يمهد السبل بالفعل الا امام تطور البلوتوقراطية) لم يستطيعوا امتناعا هم بالذات عن الاعتراف بالطابع البلوتوقراطي اي البرجوازي الذي تتسم به روح المبادأة في روسيا

فلماذا اذن نسيت هذا ؟ وانت اذ تتحدث عن التداول « الشعبي » وتطور « قوى البلد » بفضل تطور « المبادرة وروح المبادأة » ، لماذا لا تشير الى الطابع التناحري الذي يطبع هذا التطور ؟ الى الطابع الاستثماري الذي يطبع هذه المبادرة وهذه

الروح ؟ بديهي انه يمكن ويجب الوقوف ضد الاحتكارات وغيرها من المؤسسات المماثلة لأنها ، بلا ريب ، تؤزم وضع الشغيلة ، ولكنه يجب ألا يغيب عن البال ان الشغيل ، علاوة على جميع العقبات القروسطية ، مقيد ايضاً بقيود اقوى ، بقيود حديثة ، برجوازية . ولا ريب ان الغاء الاحتكارات سيكون في صالح «الشعب» بأسره ، لأن هذه البقايا من النظم القروسطية ، ـ وقد غدا الاقتصاد البرجوازي اساس اقتصاد البلاد ، ـ لا تفعل غير ان تضيف الى الويلات الرأسمالية ويلات اخرى ، اشد مرارة ، هي ويلات القرون الوسطى ولا ريب انه يجب القضاء عليها ، ـ وكلما كان ذلك اسرع واحسم ، كلما كان احسن ، ـ بغية فك ايدي الطبقة العاملة وتسهيل نضالها ضد البرجوازية بتطهير المجتمع البرجوازي من قيود شبه القنانة التي ورثها

هكذا اذن يجب تسمية الاشياء باسمائها والقول ان الغاء الاحتكارات وسائر العقبات القروسطية كلها (وهي في روسيا جحافل) ضروري تماماً للطبقة العاملة من اجل تسهيل نضالها ضد النظم البرجوازية هذا كل فحوى الامر وليس غير البرجوازيين من يستطيعون ان ينسوا ان وراء تضامن مصالح «الشعب» باسره ضد المؤسسات القروسطية ، الاقطاعية ، يكمن التناحر العميق المستعصي بين البرجوازية والبروليتاريا في داخل هذا «الشعب»

ثم انه من الخراقة الظن بان هذا يبعث في نفوس «اصدقاء الشعب» شعور الخجل ، في حين انهم ، فيما يتعلق بحاجات الريف ، يقولون ، مثلا ، اقوالا كهذه :

«عندما بحث بعض الصحف منذ عدة اعوام ـ هكذا يروي السيد كريفنكو ـ اي مهن واي نوع من المثقفين يحتاج اليه الريف ، بانت اللائحة كبيرة جداً ومتنوعة جداً ؛ وقد شملت ميادين الحياة جميعها تقريباً : بعد الاطباء والطبيبات جاء الممرضون

والممرضات ، وبعدهم المحامون ، وبعد المحامين المعلمون ومنظمو المكتبات ومخازن بيع الكتب ، والمهندسون الزُراعيون ، وخبراء الغابات ، وعلى العموم ، الاشخاص الذين يهتمون بالزراعة ، والفنيون من مختلف الاختصاصات (وهو ميدان رحب جداً ولا يزال بكراً تقريباً) ، ومنظمو وقادة مؤسسات التسليف ومستودعات البضائع ، الخ

لنتناول على الاقل اولئك «المثقفين» (؟ ؟) الذين يتعلق نشاطهم بالميدان الاقتصادي مباشرة ، اولئك خبراء الغابات والمهندسين الزراعيين والفنيين ، الخ فالى اي حد كبير يحتاج الريف في الواقع الى هؤلاء الناس ! ولكن **اي** ريف ؟ ــ بديهي انه ريف ملاكي الاراضي ، ريف الفلاحين الميسورين ، الذين يملكون «توفيرات» والذين يستطيعون ان يدفعوا اتعاب جميع هؤلاء الاختصاصيين الذين يتفضل السيد كريفنكو ويشرفهم بنعت «المثقفين» ان **هذا** الريف يتعطش بالفعل منذ زمن بعيد الى الفنيين والى التسليف والى مستودعات البضائع ، وهذا ما تشهد عليه جميع المطبوعات الاقتصادية ولكنه يوجد ريف آخر ، عدد سكانه اكبر بكثير ، ريف لا ضير على «اصدقاء الشعب» لو تذكروه مراراً اكثر ، ــ ريف فلاحين شملهم الخراب ، وسلبوهم وعروهم حتى من آخر خيط عندهم ، ولا يملكون «التوفيرات» من اجل دفع اتعاب «المثقفين» ، وليس هذا وحسب ، بل لا يملكون ايضاً ما يكفي من الخبز لكي لا يموتوا جوعاً **وهذا** الريف تريدون ان تساعدوه **بمستودعات البضائع** وما عساهم ان يضعوا في مستودعات البضائع هذه ، فلاحونا ممن يملكون حصاناً واحداً وممن لا يملكون اي حصان ؟ ألبستهم ؟ لقد سبق لهم ورهنوها في عام ١٨٩١ عند كولاك الريف والمدينة الذين اقاموا آنذاك ، عملا بنصيحتكم الانسانية الليبيرالية ، «مستودعات» حقيقية

«للبضائع» في بيوتهم وحاناتهم ودكاكينهم ولعله لم يبق لهم الا «ايديهم» العاملة ولكن ، لهذه البضاعة ، لم يخترع الموظفون الروس انفسهم حتى الآن «مستودعات بضائع»

من الصعب على المرء ان يتصور برهاناً اسطع على هذه الدرجة القصوى من الابتذال التي توصل اليها هؤلاء «الديموقراطيون» اذ يثير التقدم التكنيكي بين صفوف «الفلاحين» الرقة والحنان في نفوسهم واذ يغمضون عيونهم على انتزاع املاك هؤلاء «الفلاحين» انفسهم بالجملة فان السيد كاريشيف ، مثلا ، في العدد ٢ من «روسكويه بوغاتستفو» («المسودات» ، الفقرة ١٢) يتحدث ، بتهليل غبي ليبيرالي ، عن حالات «الاتقان والتحسين» في الاقتصاد الفلاحي ، عن «نشر الانواع المحسنة من البذار في الاقتصاد الفلاحي» ، عن الشوفان الاميركي ، وجاودار ـ فآزا ، وشوفان كلايديسدال ، الخ «وفى بعض الاماكن ، يخصص الفلاحون للبذار قطعاً خاصة غير كبيرة من الارض ، يحرثونها بعناية ثم يغرسون فيها باليد نماذج من الحبوب المصطفاة» و«فى ميدان الادوات والآلات المحسنة» * ، تلاحظ «ابتكارات عديدة ومتنوعة جداً» المحاريث الخاصة لتكويم التربة ، المحاريث الخفيفة ، الدراسات المناسف مصنفات الحبوب ويلاحظ «تزايد فى تنوع اصناف الاسمدة» الفوسفوريت ، الزبل ، زبل الحمام ، وخلافه «يلح المراسلون على ضرورة انشاء مستودعات تابعة للزيمستفو في الاماكن الريفية

---

* اذكر القارىء بتوزيع هذه الادوات المحسنة في قضاء نوفواوزنسك عند ٣٧ بالمئة من الفلاحين (الفقراء) ، اي عند ١٠ آلاف عائلة من اصل ٢٨ الفا ، ٧ ادوات من اصل ٥٧٢٤ اي ١/٨ واحد بالمئة ! ان ٤/٥ الادوات يحتكرها الاغنياء الذين لا يؤلفون سوى ١/٤ عدد العائلات .

من اجل بيع الفوسفوريت» واذا السيد كاريشيف يستشهد بمؤلف للسيد ف ف عنوانه «الاتجاهات التقدمية في الاقتصاد الفلاحي» (واليه يرجع كذلك السيد كريفنكو) ويستغرق كلياً في نشوة العواطف الجياشة المؤثرة من جراء هذه الظواهر المؤثرة من التقدم :

«ان هذه المعلومات التي لم نستطع ان نقدم عنها الا عرضاً موجزاً ، تترك في النفس انطباعاً منعشاً وكئيباً في آن واحد منعشاً ، لأن هذا الشعب ، الغارق في لجة الفقر والديون ، والذي لا يملك قسم كبير منه اي حصان ، يشتغل بلا كلل ولا توقف ، ولا يستسلم لليأس ، ولا يغير شغله ، بل يبقى وفياً للارض ، مدركا ان مستقبله وقوته وثروته فيها ، في استغلالها حسب الاصول (اجل ، بكل تأكيد ! غني عن البيان ان هذا الموجيك (الفلاح) الغارق في لجة الفقر والذي لا يملك حصاناً هو الذي يشتري الفوسفوريت ومصنفات الحبوب والدراسات وبذار شوفان كلايديسدال O, sancta simplicitas!* ولكن هذا لا تكتبه طالبة في معهد البنات النبيلات ، بل يكتبه بروفسور ، دكتور في الاقتصاد السياسي ! ! كلا ان البساطة المقدسة وحدها لا تفسر الامر هنا ، سواء شئتم ام لا) وهو يفتش بحمى عن الوسائل لهذا الاستغلال حسب الاصول ، يفتش عن سبل جديدة ، واساليب زراعية جديدة ، وبذار ، وادوات ، واسمدة ، عن كل ما من شأنه ان يساعد على تجويد ارضه المعطاء ، ارضه التي سترد له ، عاجلا ام آجلا الواحد مائة** ... ان هذه المعلومات تترك فى النفس شعوراً

---

* ــ يا للبساطة المقدسة ! **الناشر**

** انت على تمام الحق ، ايها السيد البروفسور المبجل ، حين تقول ان الاستثمارة المحسنة ستجازي **الواحد مائة** لهذا «الشعب» الذي لا

من الكآبة لأنه (لعلكم تظنون ان « صديق الشعب » سيشير هنا على الاقل الى ذلك الانتزاع بالجملة لاملاك الفلاحين ، الذي يرافق ويستتبع تمركز الارض في ايدي الفلاحين الميسورين ، وتحولها الى **رأسمال** ، الى اساس للاقتصاد **المحسن** ، ذلك الانتزاع الذي يقذف بالضبط الى السوق « بالايدي » « الحرة » و « الرخيصة » التي تصنع نجاحات « روح المبادرة » الوطنية في مضمار جميع هذه الدراسات ومصنفات الحبوب والمناسف ؟ ـ كلا ، ابداً) ، لانه ينبغي ايقاظنا نحن بالذات فماذا فعلنا لكي نساعد الموجيك في سعيه هذا الى انهاض استثمارته ؟ العلم والادب والمتاحف والمستودعات ومكاتب العمولة ، كل هذا في خدمتنا (حقاً ، ايها السادة ، ان « العلم » قائم بالضبط الى جانب « مكاتب العمولة » يجب دراسة « اصدقاء الشعب » ، لا عندما يحاربون الاشتراكيين-الديموقراطيين ، لانهم في هذه الحال يرتدون لباساً مخاطاً من اسمال « مثل الآباء العليا » ، بل في لباسهم اليومي ، عندما يبحثون بالتفصيل قضايا الحياة اليومية وحينذاك تستطيعون ان تراقبوا مفكري البرجوازية الصغيرة هؤلاء بكل الوانهم وعطورهم) فهل هناك شيء من هذا القبيل في

« يستسلم لليأس » و « يبقى وفياً للارض » ولكن ، الا تلاحظ ، ايها الدكتور العظيم في الاقتصاد السياسي ، انه ينبغي على « الموجيك » ، من اجل الحصول على جميع هذه الفوسفوريتات ، الخ ان يبرز من جمهور المعوزين الجياع ويتميز بامتلاك نقود **حرة تحت اليد** ، — والحال ان النقود هي نتاج العمل **الاجتماعي** ، وهذا النتاج يقع في ايدي افراد ؛ — وان امتلاك « الجزاء » بسبب من هذه الاستثمارة المحسنة يعني امتلاك عمل **الغير** ؛ ـ وان احقر اذناب البرجوازية هم وحدهم الذين يمكنهم ان يروا مصدر هذا الجزاء الوفير في حمية صاحب الاستثمارة الذي « يشتغل بلا كلل ولا توقف » و « يجود ارضه المعطاء » ؟ .

خدمة الموجيك ؟ هناك بالطبع اجنّة ، ولكنه يبدو انها تنمـــو بصعوبة ان الموجيك يريد مثالا فاين هي حقولنا الاختبارية ، واستثماراتنا النموذجية ؟ ان الموجيك يفتش عن الكلمة المكتوبة : فأين مطبوعاتنا في تبسيط الهندسة الزراعية ؟ ان الموجيك يفتش عن الاسمدة والادوات والبذار فاين هي مستودعـــات الزيمستفوات عندنا من كل هذا ، واين هو التخزين بالجملة ، واين هي تسهيلات الشراء والبيع ؟ بل اين انتم يا رجـــال العمل ، سواء أكنتم تشتغلـــون لحسابكم ام لحســـاب الزيمستفوات ؟ روحوا واشتغلوا ، فمن زمان دقت الساعة

من صميم القلب ، سيقول لكم الشعب الروسي شكرا (٥٠
ن كاريشيف (« روسكويه بوغاتستفو » ، العدد ٢
ص ١٩)

ها هـــم اذن هؤلاء اصدقـــاء البرجوازيين « الشعبيين » الصغار ، في نشوة تهليلهم لجميع ما حققوه من تقدم تافه ضيق الافق

قد يخال ، حتى بصرف النظر عن تحليل اقتصاد ريفنا ، انه حسب المرء ان يراقب هذا الواقع الذي يفقأ العين في تاريخنـــا الاقتصادي الجديد ، ــ الخطوات التقدمية التي يلاحظها الجميع في الاقتصاد الفلاحي الى جانب انتزاع املاك **الفلاحين** انتزاعاً هائلا ــ حتى يقتنع بانه من الخراقة تصور **الفلاحين** كلا متضامناً ومنسجماً ، حتى يقتنع بالطابع البرجوازي الذي يسم جميع هذه الخطـــوات التقدمية ! ولكن « اصدقاء الشعب » يصمون آذانهم عن كل هذا وبعد ان فقدوا النواحي الطيبة التي كانت تتحلى بها الشعبيـــة الاجتماعية الثورية الروسية القديمة ، تشبثوا بكل قوة بواحد من اخطائها الجسيمة : عدم فهم التناحر الطبقي في صفوف الفلاحين .

يقول غورفيتش بفائق الصواب «ان شعبي السبعينيات لم تكن له اي فكرة عن التناحر الطبقي في صفوف الفلاحين بالذات ، وكان يحصر هذا التناحر في العلاقات بين «المستثمِر» ، الكولاكي او مصاص الدماء ، وضحيته ، الفلاح المفعم بروح الشيوعية * وظل غليب اوسبنسكي وحيداً في ارتيابه ، يجيب بابتسامة ساخرة على الوهم العام ومع معرفته الممتازة للفلاحين ومع موهبته الفنية الكبيرة التي تتسرب الى جوهر الظواهر بالذات ، كان لا بد له من ان يرى ان الفردية قد صارت اساس العلاقات الاقتصادية ، لا بين المرابي والمستدين وحسب ، بل ايضاً بين الفلاحين على العموم انظر مقاله «السوائية» في «روسكايا ميسل» ، عام ١٨٨٢ ، العدد الاول» (المؤلف المذكور ، ص ١٠٦)

ولكن اذا كان من الجائز وحتى من الطبيعي الوقوع في شباك هذه الاوهام في الستينيات والسبعينيات ، ــ عندما كانت المعلومات الدقيقة نسبيا عن الاقتصاد في الريف لا تزال قليلة جداً وعندما لم يكن التمايز في الريف قد تكشف بعد بفائق السطوع ، ــ فانه لا بد للمرء الآن من اغماض عينيه قصداً وعمداً لكي لا يرى هذا التمايز ومن بالغ الدلالة ان تتعالى الاصوات في كل مكان حول التيارات التقدمية في الاقتصاد الفلاحي وذلك بالضبط في الآونة الاخيرة ، عندما بلغ خراب الفلاحين ذروته ، على ما يبدو فان السيد ف ف (الذي لا ريب في انه هو ايضاً من «اصدقاء الشعب») قد كتب كتاباً كاملا في هذا الموضوع وانتم لن تستطيعوا اتهامه بانه يحرّف الوقائع بل بالعكس فهناك واقع

---

* «في قلب المشاعة الريفية ، انبثقت طبقات اجتماعية متناحرة» هكذا يقول غورفيتش في مكان آخر (ص ١٠٤) وانا لا استشهد بقول غورفيتش الا على سبيل استكمال الوقائع المذكورة اعلاه .

لا يمكن وضعه موضع الشك هو واقع التقدم التكنيكي والزراعي في صفوف الفلاحين ؛ كذلك بالضبط لا يمكن ان يوضع موضع الشك واقع انتزاع املاك الفلاحين بالجملة وها هم «اصدقاء الشعب» يركزون كل انتباههم على مساعي «الموجيك» المحمومة لايجاد اساليب زراعية جديدة من شأنها ان تساعده في تجويد ارضه المعطاء ، فيغيب عن بالهم الوجه الآخر من المدالية ، وهو فصل «الموجيك» نفسه فصلا محموماً عن الارض وهم ، اشبه بالنعامة ، يغرسون رؤوسهم في الرمال لكي لا يروا الواقع وجهاً لوجه ، لكي لا يروا انهم يشهدون بالضبط مجرى تحول الارض الى رأسمال ، اي تلك الارض التي يفصل عنها الفلاحون ، مجرى نشوء السوق الداخلية * حاولوا ان تدحضوا **وجود** هذين المجريين المتضادين في مشاعتنا الفلاحية ، حاولوا **تفسيرهما** بغير طبيعة مجتمعنا البرجوازية ! ــ مستحيل ان ترتيل الهاليلويا والتشدق بالجمل الانسانية والطيبة ، هذا هو الف وياء كل «علم» هم ، وكل «نشاط» هم السياسي

بل انهم يشيّدون من هذا الترقيع الليبيرالي الوجل للنظم الحالية فلسفة كاملة يقول السيد كريفنكو بعمق في التفكير «ان عملا حيوياً صغيراً افضل بكثير من عطالة كبيرة» . ــ هذا جديد وذكي ويواصل السيد كريفنكو قائلا ثم ان «عملا صغيراً ليس ابداً مرادفاً لهدف صغير» ومثالا على هذا «الاتساع في النشاط» الذي يجعل من العمل الصغير عملا «صحيحاً وجيّداً» ، يورد

---

* ان البحث عن «اساليب زراعية جديدة» يصبح بالضبط «محموماً» لأنه يترتب على الفلاح الميسور ان يدير استثمارة اكبر لا يمكنه بالاساليب القديمة ادارتها كما ينبغي لأن المزاحمة تلزم على البحث عن اساليب جديدة اذ ان الزراعة تكتسب اكثر فاكثر طابعاً بضاعياً وبرجوازياً .

نشاط سيدة في انشاء المدارس ، ثم نشاط المحامين بين الفلاحين لطرد المماحكين ، ـ رغبة المحامين في مرافقة محاكم القضاء في دوراتها المتنقلة عبر المحافظة من اجل الدفاع عن المتهمين ، ـ واخيراً ، كما سبق وعرفنا ، انشاء مستودعات البضائع للحرفيين : ان توسيع النشاط (حتى مقاييس هدف كبير) انما يجب ان يتقوم هنا في انشاء المستودعات «بتضافر قوى الزيمستفوات في انشط النقاط»

وكل هذه ، بالطبع ، اعمال نبيلة جداً ، انسانية وليبيرالية ـ «ليبيرالية» لانها ستطهر النظام البرجوازي للاقتصاد من جميع قيوده القروسطية وتسهل بالتالي على العامل النضال ضد هذا النظام بالذات ؛ وبديهي ان تدابير كهذه لن تمس هذا النظام ، وليس هذا وحسب ، بل بالعكس ستقويه ، ـ وكل هذا نقرأه من زمان في جميع المطبوعات الليبيرالية الروسية ولو لم يضطرنا السادة من «روسكويه بوغاتستفو» ، لما كان يصح حتى الاعتراض على هذا ؛ فقد شرعوا يقدمون هذه «البديئات الوجلة لليبيرالية» **ضد** الاشتراكيين-الديموقراطيين وعلى سبيل وعظهم ، ويتهمونهم فضلا عن ذلك بالتنكر «لمثل الآباء العليا» وفي هذه الحال لا نستطيع ان نمتنع عن القول انه على الاقل من المضحك الاعتراض على الاشتراكيين-الديموقراطيين بعرض هذا النشاط **الليبيرالي** (اي الذي يخدم البرجوازية) المعتدل والمحترس وبالاشارة اليه اما فيما يخص الآباء ومثلهم العليا ، فينبغي التنويه بأنه مهما كانت نظريات الشعبيين الروس القديمة خاطئة وطوباوية ، فانها كانت في جميع الاحوال تقف موقفاً سلبياً **على الاطلاق** من امثال هذه «البديئات الوجلة لليبيرالية» واني استقي هذا التعبير الاخير من مقال للسيد ن ك ميخايلوفسكي «حول الطبعة الروسية لكتاب كارل ماركس» («اوتيتشيستفينييه زابيسكي» ، عام

١٨٧٢ ، العدد ٤) ، وهو مقال دبجه باسلوب زاخر بالحيوية والنشاط والطراوة (بالقياس الى مقالاته الحالية) وعارض فيه بعنف الاقتراح القائل بعدم ايذاء ليبيراليينا الشباب

ولكن هذا حديث من زمان ، من زمان بعيد بحيث ان «اصدقاء الشعب» استطاعوا ان ينسوا تماماً كل هذا ، وقدموا بتكتيكهم البرهان الواضح على انه اذا انعدم الانتقاد المادي للمؤسسات السياسية ، وانعدم فهم الطابع الطبقي للدولة المعاصرة ، ـ لا يبقى سوى خطوة واحدة من الراديكالية السياسية الى الانتهازية السياسية

اليكم بعض النماذج من هذه الانتهازية

يصرح السيد يوجاكوف : «ان تحويل وزارة املاك الدولة الى وزارة الزراعة يمكنه ان يؤثر تأثيراً عميقاً في مجرى تطورنا الاقتصادي ولكنه يمكن ان يكون ايضاً مجرد نقل في الموظفين» (العدد ١٠ ، «روسكويه بوغاتستفو»)

وهذا يعني ان كل شيء رهن بأمر واحد بمن «يدعون» ، اصدقاء الشعب ام ممثلي مصالح الملاكين العقاريين والرأسماليين اما المصالح نفسها ، فيمكن عدم المساس بها

«ان حماية الضعيف اقتصادياً من القوي اقتصادياً تشكل المهمة الطبيعية الاولى لتدخل الدولة» ؛ هكذا يواصل السيد يوجاكوف نفسه في المقال ذاته ، واذا محرر اخبار الحياة الداخلية يوافقه في الرأي مردداً تعابيره في العدد ٢ من «روسكويه بوغاتستفو» ولكي لا يدع اي مجال للشك في انه يفهم هذه الحماقة * في حب البشر ، كما يفهمها زملاؤه الاجلاء ، المفكرون

---

* حماقة ، لأن قوة «القوي اقتصادياً» تكمن ، بالمناسبة ، في انه يقبض بين يديه على السلطة السياسية ولولا هذه السلطة ، لما كان في وسعه ان يحافظ على سيادته الاقتصادية

الليبيراليون والراديكاليون من البرجوازية الصغيرة في اوروبا الغربية ، يضيف الى ما قيل اعلاه :

«ان قوانين الارض التي سنها غلادستون (٥١) ، والضمان العمالي الذي اسسه بيسمارك ، وتفتيش المعامل ، وفكرة انشاء بنك فلاحي عندنا ، وتنظيم هجرات السكان في داخل البلاد ، والتدابير ضد الكولاك ، كل هذا عبارة عن محاولات لتطبيق هذا المبدأ نفسه القائل بتدخل الدولة بغية الدفاع عن الضعيف اقتصادياً»

هذا طيب على الاقل لانه قيل بصراحة فان الكاتب يقول هنا بوضوح انه يريد ، على وجه الدقة ، الاعتماد على العلاقات الاجتماعية القائمة كما يفعل السادة اضراب غلادستون وبيسمارك ـ على وجه الضبط ، يريد مثلهم ان يصلح ويرقع المجتمع الحالي (البرجوازي ، وهو امر لا يدركه كما لا يدركه ايضاً انصار غلادستون وبيسمارك واضرابهما في اوروبا الغربية) ، لا ان يناضل ضده ان ما ينسجم كلياً مع رأيهم النظري الاساسي هذا ، هو انهم يرون ان اداة الاصلاحات انما هي الدولة ، اي هذا الجهاز الذي نما في تربة هذا المجتمع الحالي ويصون مصالح الطبقات السائدة فيه وهم يعتبرون صراحة ان الدولة كلية الجبروت وتقف فوق جميع الطبقات ، ويتوقعون منها لا «دعم» الشغيلة وحسب ، بل ايضاً خلق نظم صحيحة حقيقية (كما سمعنا من السيد كريفنكو) ومفهوم مع ذلك انه لا يجوز لنا ان ننتظر منهم شيئاً آخر ، بوصفهم مفكري البرجوازية الصغيرة الاقحاح فمن السمات الاساسية والمميزة التي تتصف بها البرجوازية الصغيرة وتجعل منها ، فيما تجعل ، طبقة رجعية ، ان المنتج الصغير ، المعزول والمنفرد بحكم ظروف الانتاج ذاتها ، والمربوط بمكان معين وبمستثمِر معين ، عاجز عن ادراك الطابع الطبقي لهذا الاستثمار

وهذا الاضطهاد اللذين يعاني وطأتهما احياناً لا اقل مما يعانيها البروليتاري ، عاجز عن ادراك ان الدولة في المجتمع البرجوازي لا يمكن لها ان لا تكون دولة طبقية *

ولكن ، لماذا ، ايها السادة الاجلاء «اصدقاء الشعب» ، «دعمت» حكومتنا و«حمت وخلقت» البرجوازية والرأسمالية فقط وذلك بعزيمة خاصة منذ هذا الاصلاح التحريري نفسه حتى الآن ؟ لماذا وقع هذا النشاط السيئ من جانب هذه الحكومة المطلقة ، الواقفة ، على ما يزعم ، فوق الطبقات ، لماذا وقع بالضبط في مرحلة تاريخية تتصف من حيث الحياة الداخلية بتطور الاقتصاد البضاعي والتجارة والصناعة ؟ لماذا تعتقدون ان هذه التغيرات الاخيرة في الحياة الداخلية نتيجة ، بينما تعتبرون سياسة الحكومة مقدمة ، مع ان التغيرات الاولى جاءت على درجة من العمق بحيث ان الحكومة حتى لم تلحظها واقامت بوجهها طائفة من العقبات ، ومع ان هذه الحكومة «المطلقة» نفسها «دعمت» و«حمت» و«خلقت» طبقة اخرى في ظروف اخرى من الحياة الداخلية ؟

---

* ولذا ايضا كان «اصدقاء الشعب» اسوأ الرجعيين ، عندما يقولون ان المهمة الطبيعية التي تجابه الدولة انما هي حماية الضعيف اقتصادياً (هكذا **يجب ان يكون** الحال حسب قواعدهم الاخلاقية المبتذلة العتيقة) ، في حين ان كل التاريخ الروسي والسياسة الداخلية يشهدان على ان مهمة دولتنا تقتصر على حماية الملاكين العقاريين اصحاب الاقنان والبرجوازية الكبيرة ، واللجوء الى اشد الاساليب وحشية لقمع كل محاولة من «**الضعفاء اقتصادياً**» للدفاع عن انفسهم وهذه ، بالطبع ، مهمتها **الطبيعية** لأن الحكم المطلق والدواوينية مفعمان كلياً بالروح الاقطاعية والبرجوازية ولأن البرجوازية تسود وتحكم بلا منازع في الميدان الاقتصادي ، مبقية العامل «اهدأ من الماء واوطأ من العشب» .

آه ، ان «اصدقاء الشعب» لا يطرحون ابداً امثال هـذه الاسئلة ! فكل هذا مادية وديالكتيك ، و«هيغلية» و«صوفية وميتافيزياء» انهم يظنون بكل بساطة ان من الممكن ان ترتب هذه الحكومة الامور على خير ما يرام اذا ما طلب منها ذلك بلطف وعذوبة وفيما يخص العذوبة ، يجب الاقرار بما تتحلى بـه «روسكويه بوغاتستفو» فالحق انها ، حتى في عداد الصحافة الليبيرالية الروسية ، تمتاز بعجزها عن انتهاج مسلك مستقل نوعاً احكموا بانفسكم :

«ان الغاء ضريبة الملح ، والغاء ضريبة الاعناق ، وتخفيض مدفوعات التعويضات» (٥٢) ينعتها السيد يوجاكوف بانهـا «تخفيف جدي للاقتصاد الشعبي» اجل ، بكل تاكيد !ـ ولكن الغاء ضريبة الملح ، ألم يرافقه تاسيس جملة من الضرائب الجديدة غير المباشرة وزيادة الضرائب القديمـة ؟ والغاء ضريبـة الاعناق ، ألم ترافقه زيادة المدفوعات المفروضـة على الفلاحين الذين كانوا يخصون الدولة ، بشكل تعويضات ؟ او لم يبق حتى الآن ايضاً ، بعد تخفيض مدفوعات التعويضات المزعوم (الذي لم ترد الدولة بواسطته الى الفلاحين حتى ذلك الربح الذي ابتزته من عملية التعويضات) ـ عدم تناسب بين المدفوعـات وبين مردود الارض ، اي بقية حقيقية من الاتاوات الاقطاعية ؟ ـ لا باس ! فالمهم هنا ، انما هو «الخطوة الاولى» فقط ، «المبدأ» فقط ، وفيما بعد . . . فيما بعد ، يمكن التسول من جديد !

ولكن هذه ليست بعد سوى الازهار واليكم الثمار

«ان الثمانينيات قد خففت عبء الشعب (بفضل التدابير المشار اليها آنفاً ، حقاً ؟) وانقـذت بالتالي الشعب من الخراب النهائي» .

وهذه جملة كلاسيكية اخرى من حيث وقاحتها الذليلة ، جملة لا يمكن مقارنتها الا بالتصريح الذي ادلى به السيد ميخايلوفسكي والذي اشير اليه سابقاً ، وهو الزاعم انه لا يزال يترتب علينا ان نخلق البروليتاريا اننا لا نستطيع الامتناع عن ان نتذكر في هذا الصدد ذاك الوصف الصائب الذي وصف به شيدرين تاريخ تطور الليبيرالي الروسي (٥٣) يبدأ هذا الليبيرالي بان يطلب من اصحاب الامر والنهي الاصلاحات «في نطاق الممكن» ؛ ويواصل متوسلا «ولو شيئاً ما» ، وينتهي بموقف موسوم ابداً وحتماً «بالخساسة» وبالفعل ، كيف لا نقول عن «اصدقاء الشعب» انهم شغلوا هذا الموقف الخالد والحتمي عندما يقولون في الصحف ، بفعل الانطباع الطري عن مجاعة الملايين من الناس التي وقفت منها الحكومة في البدء موقف التاجر الشحيح ، ثم موقف التاجر الجبان ، ان الحكومة انقذت الشعب من الخراب النهائي ! ! وستمضي بضعة اعوام اخرى مصحوبة بانتزاع املاك الفلاحين بمزيد من السرعة ، وتضيف الحكومة الى تأسيس وزارة الزراعة الغاء ضريبة او ضريبتين مباشرتين وفرض بضع ضرائب جديدة غير مباشرة ؛ ثم تشمل المجاعة ٤٠ مليون شخص ، وسيكتب هؤلاء السادة بالطريقة ذاتها على وجه الدقة انظروا ، ٤٠ مليوناً يجوعون لا ٥٠ مليوناً ؛ وهذا لأن الحكومة خففت عبء الشعب وانقذت الشعب من الخراب النهائي ؛ هذا لأن الحكومة اصغت الى «اصدقاء الشعب» واسست وزارة الزراعة !

واليكم مثالا آخر

ان محرر اخبار الحياة الداخلية ، في معرض كلامه ، في العدد ٢ من «روسكويه بوغاتستفو» ، عن ان روسيا بلد متأخر «لحسن الحظ» (كذا !) «يحتفظ بالعناصر التي تتيح تأسيس

نظامه الاقتصادي على مبدأ التضامن» * ،ـ يقول ان روسيا قادرة لهذا السبب على ان تبرز «في العلاقات الدولية عاملا للتضامن الاقتصادي» وان حظ روسيا في القيام بهذا الدور يزيده «جبروتها السياسي» الذي لا مراء فيه ! !

ان هذا الدركي الاوروبي ، سند الرجعية ، كل رجعية ، سندها الدائم والامين ، والذي قاد الشعب الروسي الى درجة من الخزي بحيث انه ، وهو المسحوق في بلده ، كان اداة لسحق الشعوب في الغرب ، ان هذا الدركي يُرفَع الى مرتبة عامل للتضامن الاقتصادي !

ان هذا يتخطى حقاً كل حد ! ان السادة «اصدقاء الشعب» يتجاوزون جميع الليبيراليين اشواطاً فهم لا يكتفون بالتوسل الى الحكومة وباغداق المدائح عليها ، بل انهم يعبدون هذه الحكومة ويخرون سجداً امامها على ركابهم ، ويصلون لها بدرجة من الحرارة بحيث ان المرء يتملكه الرعب عندما يسمع جباههم ، جباه الرعايا المخلصين ، تقرع الارض قرعاً

او تذكرون التعريف الالماني للتافه الضيق الافق ؟

Was ist der Philister?
Ein hohler Darm,
Voll Furcht und Hoffnung,
Daß Gott erbarm**.

---

* بين من ومن ؟ بين الملاك العقاري والفلاح ؟ بين الفلاح الميسور والفلاح المعدم ؟ بين الصناعي والعامل ؟ لكي ندرك جيداً «مبدأ التضامن» الكلاسيكي هذا ، يجب ان نتذكر ان التضامن بين رب العمل والعامل يتحقق «بتخفيض الاجور»

** من هو التافه الضيق الافق ؟

معى فارغ ،
مليء خوفاً وأملا ،
برحمة الله . (غوته) . **الناشر** .

ان هذا التعريف لا ينطبق بعض الشيء على حالتنا فالله الله عندنا يأتي تماماً في المرتبة الثانية اما السلطات، فهذه حكاية اخرى واذا نحن وضعنا في هذا التعريف كلمة «السلطات» مكان كلمة «الله»، حصلنا على ادق تعبير لما يتحلى به «اصدقاء الشعب» الانسانيون والليبراليون الروس من متاع فكري ومستوى اخلاقي وشجاعة مدنية

والى هذه الفكرة الخرقاء كلياً عن الحكومة يربط «اصدقاء الشعب» موقفاً مناسباً لهم مما يسمى «الانتلليجنسيه (المثقفون)» فقد كتب السيد كريفنكو يقول يجب على «الادب ان يقدر الظواهر من حيث معناها الاجتماعي وان يشجع كل مسعى نشيط الى الخير لقد ردد الادب ولا يزال يردد ان هناك نقصاً في المعلمين والاطباء والفنيين وان الشعب يصاب بالامراض ويدب فيه الفقر (لقلة الفنيين !) ولا يعرف لا القراءة ولا الكتابة، الخ ، وحين يظهر اناس ملوا الجلوس حول المائدة الخضراء والاشتراك في مسرحيات الهواة والتهام فطائر سمك الزجر عند مارشال النبلاء، اناس ينطلقون الى العمل بتفان نادر (فكروا اذن لقد تخلوا عن الطاولات الخضراء والمسرحيات والفطائر !) ورغم كثرة من العقبات، ينبغي على الادب ان يحييهم»

وبعد صفحتين وبذلك الوقار العملي الذي يكتسبه دواويني حنكته التجارب، يؤنب اولئك الذين «ترددوا في قبول او رفض مناصب الزيمسكييه ناتشالنيكي (٥٤)، ورؤساء بلديات المدن ورؤساء واعضاء الزيمستفوات بموجب النظام الجديد ففي مجتمع تطور فيه ادراك الحاجات والواجبات المدنية (اسمعوا ايها السادة ان هذا يساوي حقاً خطابات البومبادوريين الروس المشهورين من طراز بارانوف او كوسيتش واضرابهما !) تكون امثال هذه الترددات ومثل هذا الموقف امراً اخرق غير معقول،

لأن المجتمع يكيف آنذاك على طريقته كل اصلاح ، اذا كان يتسم بجوانب قابلة للحياة ، اي ان المجتمع يستغل جوانبه العقلانية ويطورها ، ويحول جوانبه العقيمة الى حرف ميت واذا كان الاصلاح لا ينطوي على اي جانب قابل للحياة ، بقي كلياً جسماً غريباً »

الشيطان وحده يعرف ما هذا ! انتهازية لا تساوي فلساً وتبرز بمثل هذا الادعاء ! او مهمة الادب ان يجمع ثرثرات الصالونات حول الماركسيين الاشرار وان ينحنى بالتحيات امام الحكومة لانقاذها الشعب من الخراب النهائي ، ويرحب باولئك الذين ملوا الجلوس الى الطاولات الخضراء ، ويعلّم «الجمهور» الا يتهرب حتى من وظائف كوظيفة الزيمسكييه ناتشالنيكي ولكن ماذا اقرأ ؟ «نيديليا» (٥٥) ام «نوفويه فريميا» ؟ ـ كلا ، انما «روسكويه بوغاتستفو» ـ لسان حال الديموقراطيين الروس الطليعيين ...

وامثال هؤلاء السادة يتشدقون «بمثل الآباء العليا» ويدّعون انهم هم الذين يحفظون تقاليد تلك الازمان التي نشرت فيها فرنسا افكار الاشتراكية (٥٦) في عموم اوروبا ، وآل فيها استيعاب هذه الافكار في روسيا الى نشوء نظريات وتعاليم غرتسن وتشيرنيشيفسكي ولو ان «روسكويه بوغاتستفو» لم تكن مضحكة للغاية ، ولو ان امثال هذه التصريحات على صفحات مجلة كهذه لا تستدعي غير الضحك الصاخب الساخر ، لكانت تلك قحة تثير عميق النفور وتسدد شديد الاهانة اجل ، انكم تدنسون هذه المثل العليا ! وبالفعل ، فيم كانت تتقوم هذه المثل العليا عند الرعيل الاول من الاشتراكيين الروس ، اشتراكيي ذلك العهد الذي وصفه كاوتسكي بفائق الدقة كما يلي :

ـ «عهد كان كل اشتراكي شاعراً وكل شاعر اشتراكياً» .

ـ **الايمان بنمط الحياة الروسية الخاص ، بنظامها المشاعي ؛** ومن هنا ـ **الايمان بامكان الثورة الاشتراكية الفلاحية** ، ـ هذا ما كان يلهمهم ، ويدفع العشرات والمئات من الناس الى النضال البطولي ضد الحكومة . وانتم لا تستطيعون ان تلوموا الاشتراكيين-الديموقراطيين لأنهم لم يعرفوا كيف يقدرون تلك المأثرة التاريخية الجلية التي اجترحها خيرة الناس هؤلاء في زمنهم ، ولم يعرفوا كيف يجلـون ذكراهم عميق الاجلال . ولكني اسالكم : اين هو الآن هذا الايمان ؟ ـ انه غير موجود ، غير موجود الى حد انه عندما حـاول السيـد ف . ف في العام الماضي ان يقول ان المشاعة تربي الشعب عـلى العمل التضامني ، وتشكل بؤرة لعواطف الايثار وحب الغير ، الخ (٥٧) ، استيقظ حتى ضمير السيد ميخايلوفسكي فشرع يقنـع السيد ف . ف بحياء انه «لا توجد **دراسة** تثبت صلة **مشاعتنا** بحب الغير» (٥٨) وبالفعل ، لا وجود لدراسة كهذه . ومـع ذلك ، انظروا لقد كان زمن آمن فيه الناس دون اي دراسـة كانت ، وآمنوا راسخ الايمان .

كيف ؟ لماذا ؟ على اي اساس ؟ . .

ـ «كان كل اشتراكي شاعراً وكل شاعر اشتراكياً»

ثـم ان جميـع الباحثين النزهـاء ، كمـا يضيف السيد ميخايلوفسكي ذاته ، اجمعوا على القول ان الريف يتفسخ ، وينقسم من جهة الى جمهور من البروليتاريا ، ومن جهة اخرى الى حفنة من «الكولاك» يبقون تحت جزماتهم بقية السكان وهو هذه المرة ايضاً على حق فان الريف ينقسم فعلا بل ان الريف قد انقسم تماماً من زمان ومعه انقسمت الاشتراكية الفلاحية الروسية القديمة واخلت المكان للاشتراكية العمالية من جهة وانحطت من جهة اخرى الى راديكالية برجوازية صغيرة مبتذلة . ولا يمكن وصف هذا التحول الا بالانحطاط . فمن المذهب القائل بشكل الحياة الفلاحية الخاص ،

وبطرق تطورنا الاصيلة كلياً ، انبثق مذهب اختياري ضيق لم يبق في وسعه ان ينكر ان الاقتصـــاد البضاعي اصبح اساس التطور الاقتصادي وانه تحول الى رأسمالية ، مذهب اختياري لا يريد ان يرى الطابع البرجوازي لجميع العلاقات الانتاجية ، لا يريد ان يرى ضرورة النضال الطبقي في ظل هذا النظام ومن البرنامج السياسي الهادف الى **حث الفلاحين** على الثورة الاشتراكية **ضد اسس المجتمع الحالي** * ، انبثق برنامج يهدف الى ترقيـــع و «تحسين» وضع الفلاحين **مع الحفاظ على اسس المجتمع الحالي** .

صحيح ان كل ما سبق قوله كان في وسعه ان يعطي فكرة عن «النقد» الذي يمكن توقعه من هؤلاء السادة في «روسكويـــه بوغاتستفـــو» ، حين يشرعـــون في «تحطيـــم» الاشتراكيين-الديموقراطيين فان هؤلاء السادة لا يحاولون ابداً ان يعرضوا صراحة وبحسن نية مفهوم الاشتراكيين-الديموقراطيين عن الواقع الروسي (وهذا ممكن تماماً من حيث الرقابة ، لو الحوا على الجانب الاقتصادي بوجه خاص ، لو لجأوا الى تعابير عامة ، ايزوبية (٦١) جزئيا ، كالتي انطوت عليها كل «مناظرتهم») وان ينتقدوه من حيث الجوهر وان يعارضوا صحة الاستنتاجات العملية التي تنجم عنه . ولكنهم ، عوضاً عن هذا ، يفضلون اللجوء الى جمل خالية من كل معنى حول المخططات المجردة والايمان بها ، وحول الاقتناع بضرورة مرور كل بلد بمرحلة وغير ذلك من الخراقات التي

---

* في هذا كانت تنحصر ، من حيث الجوهر ، جميع برامجنا الثورية القديمة ، ابتداء على الاقل من الباكونينيين والمتمردين (٥٩) واستمراراً بالشعبيين ، وانتهاء بالنارودوفـــوليين الذين كان ايمانهـــم بان الفلاحين سيرسلون اغلبية ساحقة من الاشتراكيين الى «الزيمسكي سوبور» (٦٠) العتيد ، ابعد من ان يشغل المرتبة الاخيرة .

سبق وتعرفنا عليها كفاية عند السيد ميخايلوفسكي وفضلا عن ذلك ، نجد تشويهات سافرة فان السيد كريفنكو ، مثلا ، يعلن ان ماركس «اعترف بان من الممكن لنا اذا ما رغبنا (؟!! هكذا اذن ، يتوقف تطور العلاقات الاجتماعيـــة والاقتصادية ، **حسب ماركس** ، على ارادة الناس وادراكهم ؟؟ ما هذا ، أجهل لا حد له ام وقاحة لا مثيل لها ؟!) وقمنا بالعمل المناسب ، ان نتحاشى اطوار الرأسمالية ، ونسلك سبيلا آخر ، اكثر عقلانية (كذا !!!)».

هذه الحماقة لم يستطع فارسنا ان ينطق بها الا باللجوء الى غش سافر فان السيد كريفنكو ، ــ وقد استشهد بـ«رسالة كارل ماركس» المشهـــورة («يوريديتشيسكـــي فيستنيك» («بشير الحقوق») ، عام ١٨٨٨ ، العدد ١٠) واورد منها المقطع الذي يعرب فيه ماركس عن سامي تقديره لتشيرنيشيفسكي الذي كان يعتبر ان من الممكن لروسيـــا ان «لا تكابد عذابـــات النظـــام الرأسمالي» ، ــ يغلق الهلالين المزدوجين ، اي انه لا يورد الى النهاية اقوال ماركس (فهي تنتهي هكذا: «انه (اي تشيرنيشيفسكي) يبدي رأيه بما يؤيد الحل الاخير») ويضيف «وانا ، يقول ماركس ، **اشاطر** (اشـــارة التاكيد من السيد كريفنكو) هذه النظـــرات» (ص ١٨٦ ، العدد ١٢)

اما في الواقع ، فقد قال ماركس مـــا يلي «وان ناقـــدي المحترم كان لديه من الاسباب التي تحمله على الاستنتـــاج من احترامي لهذا «العالم والناقد الروسي العظيم» اني اشاطر نظرات هذا الاخير الى هذه المسالـــة ، على الاقل قدر ما كان لديـــه من الاسباب التي تحمله على الاستنتاج ، بالعكس ، من حملة المناظرة التي شننتها على «الاديب» الروسي وداعية السلافية ، اني انكرها» (٦٢) («يوريديتشيسكي فيستنيك» ، عام ١٨٨٨ ، العدد ١٠ ، ص ٢٧١) .

وهكذا يقول ماركس ان السيد ميخايلوفسكي لم يكن يملك الحق في ان يرى فيه خصماً للفكرة القائلة بتطور روسيا الخاص ، لأنه يحترم ايضاً اولئك الذين يشاطرون هذه الفكرة ، بينما يزعم السيد كريفنكو ، في تأويله ، ان ماركس «اعترف» بهذا التطور الخاص تزييف سافر ان بيان ماركس ، الوارد اعلاه ، يبين بوضوح كلي انه يتجنب الجواب في الاساس «لقد كان في مقدور السيد ميخايلو سكي ان يستند الى واحدة من هاتين الملاحظتين المتناقضتين ، اي انه لم يكن لديه سبب للاعتماد على هذه او تلك لكي يستخلص استنتاجاته بصدد رأيي في الشؤون الروسية على العموم» ولكي لا تفسح هاتان الملاحظتان المجال للتأويلات الخاطئة ، اجاب ماركس صراحة في «الرسالة» ذاتها عن السؤال التالي : كيف يمكن تطبيق نظريته في روسيا ان هذا الجواب يبين بجلاء خاص ان ماركس يتحاشى الجواب حول جوهر الامر وتحليل المعطيات الروسية التي من شأنها وحدها دون غيرها ان تبت في القضية فقد اجاب «اذا حاولت روسيا ان تصير امة رأسمالية من طراز امم اوروبا الغربية ،ـ وفي السنوات الاخيرة تسببت لنفسها بفادح الضرر في هذا الصدد ـ فانها لن تبلغ هذا الهدف اذا لم تحول سلفاً قسماً كبيراً من فلاحيها الى بروليتاريين»

يبدو ان هذا واضح تماماً فالقضية كانت تتقوم على وجه الضبط في معرفة ما اذا كانت روسيا تحاول ان تصير امة رأسمالية ، ما اذا كان خراب فلاحيها يعني نشوء نظام رأسمالي وبروليتاريا رأسمالية ؛ والحال ، يقول ماركس انها «اذا» حاولت ، فلا بد لهذا الغرض من تحويل قسم كبير من الفلاحين الى بروليتاريين وبتعبير آخر ، ان نظرية ماركس تقوم في بحث وتوضيح تطور الانظمة الاقتصادية في البلدان المعنية ؛ اما «تطبيقها» على روسيا فلا يمكن ان يقوم الا في **استخدام** الاساليب

الموضوعة للطريقة **المادية** والاقتصـــاد السياسي **النظري** من اجل **دراسة** علاقات الانتاج الروسية وتطورها *

ان صياغة نظرية جديدة في علم المنهج وفي علم الاقتصـــاد السياسي قد كانت بمثابة تقدم في العلم الاجتماعي على درجة من الجلال ، وخطوة الى الامام خطتها الاشتراكية على درجة من الروعة ، بحيث ان الاشتراكيين الروس قد اعتبروا ، بعد ظهـــور «رأس المال» على الفور تقريباً ، ان القضية النظرية الرئيسية انما هي قضية «مصائر الرأسمالية في روسيـــا» ؛ وحول هذه القضيـــة تمركزت احر المناقشات ، وتبعاً لها تقررت اهم احكام البرامج . وتجدر الاشارة الى انه عندما ظهرت جماعة خاصة من الاشتراكيين (منذ ١٠ سنوات تقريباً) وفصلت بصورة ايجابية في مسالة تطور روسيا الرأسمالي ودعمت قرارها هذا بمعطيات الواقع الاقتصادي الروسي ، لم تلق ، من حيث الجوهر ، اي انتقاد صريح وواضح تبنّى نفس المبادئ العامـــة المنهجيـــة والنظرية ، وفسر هذه المعطيات تفسيراً آخر

ان «اصدقاء الشعب» ، الذين شنوا حملـــة كاملـــة على الماركسيين ، لا يبنون كذلك براهينهـــم على تحليل المعطيات الملموسة فهم ، كما رأينا في المقال الاول ، يتملصون بالجمل والحال ، لا يفوت السيد ميخايلوفسكي اي فرصة لابراز ذكائه فيما يتعلق بانعدام وحدة الرأي بين الماركسيين ، وانعدام الاتفاق فيما بينهم . واذا «صاحبنا الشهير» السيد ن ك . ميخايلوفسكي يمرح ويضحك بصـــدد نكتتـــه على الماركسيين «الحقيقيين» و«غير

---

* اكرر ان هذا الاستنتاج لم يكن من الممكن الا يكون واضحاً لكل من قرأ «البيان الشيوعي» و«بؤس الفلسفة» و«رأس المال» ، ولكنـــه تطلب ايضاحاً خاصاً للسيد ميخايلوفسكي وحده .

الحقيقيين» صحيح انه لا توجد وحدة تامة في الآراء بين الماركسيين ولكن هذا الواقع يقدمه السيد ميخايلوفسكي بصورة غير صحيحة ، هذا اولا ؛ وهذا الواقع يثبت بالضبط قوة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية وحيويتها ، لا ضعفها ، هذا ثانياً فالقضية ان الآونة الاخيرة تتصف على الاخص بكون الاشتراكيين يتوصلون الى المفاهيم الاشتراكية-الديموقراطية عن سبل مختلفة ، ولذا فانهم ، ــ مع موافقتهم المطلقة على الموضوعة الاساسية والرئيسية القائلة ان روسيا هي مجتمع برجوازي انبثق من نظام القنانة وان شكلها السياسي دولة طبقية وان الطريق الوحيد الى وضع حد لاستثمار الشغيلة انما هو نضال البروليتاريا الطبقي ، ــ يفترقون في كثرة من القضايا الخاصة ، سواء أمن حيث اساليب الاثبات ، ام من حيث التفسيرات المفصلة لهذه او تلك من ظواهر الحياة الروسية ولهذا استطيع ان أفرح مسبقاً السيد ميخايلوفسكي ببيان مفاده انه فيما يخص ، مثلا ، القضايا التي لمسناها لمساً في هذه الملاحظات العاجلة ، ــ قضية الاصلاح الفلاحي ، قضية اقتصاد الزراعة الفلاحية والصناعات الحرفية ، قضية استئجار الاراضي ، الخ . ــ توجد آراء مختلفة في نطاق الموضوعة الاساسية التي يشاطرها جميع الاشتراكيين-الديموقراطيين والتي اوردناها للتو ان اجماع الذين يكتفون باجماع الاعتراف «بالحقائق السامية» من النوع التالي : **بوسع** الاصلاح الفلاحي ان يفتح لروسيا طرقاً هادئة للتطور القويم ؛ **بوسع** الدولة ان تستنجد «باصدقاء الشعب» لا بممثلي مصالح الرأسمالية ؛ **بوسع** المشاعة ان تضفي الطابع الاجتماعي على الزراعة وكذلك على صناعة التحويل التي **بوسع** الحرفي ان يرفعها الى مستوى الصناعة الكبيرة ؛ ان استئجار الاراضي **الشعبي** قد دعم الاقتصاد **الشعبي** ــ ان هذا الاجماع المحنّن والمؤثر قد حل محله اختلاف في الرأي بين اناس يسعون الى

استيضاح تنظيم روسيا الاقتصادي **الفعلي ، الحالي** بوصفه نظاماً من علاقات انتاج معينة ، الى استيضاح تطورهـــا الاقتصادي **الفعلي** وبنياناتها الفوقية السياسية وغيرها .

واذا كان هذا العمل ، المنطلق من وجهات نظر مختلفـــة ، يقود الى الاعتراف بالموضوعة العامة التي تحدد بالضرورة النشاط السياسي التضامني وتخول بالتالي جميع الذين يتبنونهـــا الحق وتفرض عليهم واجب ان يعتبروا انفسهـــم ويسموا انفسهـــم **« اشتراكيين-ديموقراطيين »** ، اذا كان هذا العمل يترك مـــع ذلك المجال رحباً لخلافات الرأي في طائفة من القضايا الخاصة التي يمكن حلها باشكال مختلفة ، فان هذا لا يثبت بالطبع الا قوة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية وحيويتها *

ناهيك عن ان ظروف هذا العمل لعلى درجة من السوء بحيث يصعب على المرء ان يتصور ظروفاً اسوأ : فليس ثمة ولا يمكن ان يكون ثمة جهاز في وسعه ان يوحد مختلف الاعمال ان الصـلات الشخصية في اوضاعنا البوليسية لفي غاية الصعوبة ومفهوم ان لا يكون في مقدور الاشتراكيين-الديموقراطيين ان يتفاهموا ويتفقوا كما ينبغي حول التفاصيل ، ومفهوم ان يناقض بعضهم بعضاً

---

* لسبب بسيط ، هو ان هذه القضايـــا **لم تجد لها اي حل** حتى الآن وبالفعل ، لا يجوز ان يسمى حلا لقضية استئجار الارض الزعم ان « الاستئجار الشعبي للاراضي يدعم الاقتصاد الشعبي » ، او عرض نظـــام زراعة اراضي الملاكين العقاريين بادوات الفلاح على النحو التالي « لقد ظهر الفلاح اقوى من الملاك العقاري » الذي « ضحى باستقلاله في صالح الفـــلاح المستقل » ، « لقد انتزع الفلاح من يدي الملاك العقاري الانتاج الكبير » ؛ « ان الشعب يبقى هو الظافر في النضال من اجل شكل العمـــل الزراعي » هذه الثرثرة الفارغة الليبيرالية واردة في « مصائر الرأسمالية » « لصاحبنـــا الشهير » السيد ف . ف .

لكم هو مضحك هذا بالفعل ، أليس كذلك ؟

في «مناظرة» السيد كريفنكو مع الاشتراكيين-الديموقراطيين قد ينشأ بعض الارتباك لكونه يتحدث عمن يسميهم «الماركسيين الجدد» فقد يظن بعض القراء انه حدث بين الاشتراكيين-الديموقراطيين شيء ما من نوع الانشقاق ، وان «الماركسيين الجدد» قد انفصلوا عن الاشتراكيين-الديموقراطيين القدامى . ـ كلا ، لا شيء من هذا القبيل فان احداً ، في اي مكان وزمان ، لم ينتقد علناً وجهاراً ، باسم الماركسية ، نظريات الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس وبرنامجهم ، ولم يدافع عن ماركسية اخرى فالواقع ان السيدين كريفنكو وميخايلوفسكي قد سمعا شتى نمائم الصالونات بصدد الماركسيين ، ورأيا مختلف الليبراليين الذين يسترون تفاهتهم الليبرالية وراء ستار الماركسية ، وعمدا بمثل هذا المتاع وبما يختصان من لذاعة وفطانة الى «نقد» الماركسيين فلا غرابة اذا كان هذا «النقد» يؤلف سلسلة متواصلة من الطرائف المستغربة والحملات القذرة

ويحلل السيد كريفنكو قائلا «لكي يكون المرء منسجم التفكير ، لا بدّ له ان يجيب عن هذا بالايجاب» (اي على السؤال التالي «ألا يجدر بذل الجهد لتطوير الصناعة الرأسمالية») و«ان لا يرتبك لا امام شراء اراضي الفلاحين بالجملة ولا امام فتح الدكاكين والحانات» ، لا بد له ان «يفرح لنجاح العديدين من اصحاب الحانات في مجلس الدوما ، ويساعد عدداً عديداً اكبر من مشتري حبوب الفلاح بالجملة»

حقاً ان هذا مضحك جداً حاولوا ان تقولوا «لصديق الشعب» هذا ان استثمار الشغيل في روسيا هو في كل مكان رأسمالي اصلا ، وانه يجب تصنيف الفلاحين الميسورين والمحتكرين في الريف في عداد ممثلي الرأسمالية ، وفقاً لهذه او تلك من العلائم

الاقتصادية السياسية التي تثبت الطابع البرجوازي لتمايز الفلاحين ، فانه سيرفع عقيرته بالصياح ، وينعت هذا بانه هرطقة لا تصدق ، ويشرع في الزعيق ضد هذا اللجوء الاعمى الى الصيغ الاوروبية الغربية والمخططات المجردة (وهو في هذه الحال ، يلزم الصمت ، بحرص كبير جدا ، حول المضمون الفعلي للحجج «الهرطقية») وحين يراد رسم «الويلات» التي يأتي بها الماركسيون الاشرار ، ـ حينذاك يمكن وضع العلم النبيل والمثل العليا الصافية جانباً ، حينذاك يمكن الاعتراف بأن مشتري حبوب الفلاح بالجملة وارض الفلاح بالجملة هم فعلا ممثلو الرأسمالية لا مجرّد «محبين» للاستفادة من ملك الغير

حاولوا ان تبينوا «لصديق الشعب» هذا ان البرجوازية الروسية لا تقبض الآن في كل مكان بين يديها على عمل الشعب وحسب ، لأنها تحصر وحدها بين يديها وسائل الانتاج ، بل تضغط ايضاً على الحكومة خالقة وفارضة ومحددة طابع سياسة الحكومة البرجوازي ، ـ تملكه عارض من الجنون المطلق ، وشرع يزعق بالجبروت الكلي لحكومتنا ، وبأن هذه الحكومة ، بفعل سوء فهم مشؤوم وصدفة مشؤومة لا غير ، «تدعو» دائماً ممثلي مصالح الرأسمالية لا «اصدقاء الشعب» ، وبأنها تغرس الرأسمالية بصورة مصطنعة ولكن «اصدقاء الشعب» ملزمون بأن يعترفوا ، خفية ، وعلى وجه الضبط بأن اصحاب الحانات في الدوما هم ممثلو الرأسمالية ، والدوما عنصر من عناصر هذه الحكومة نفسها التي تقف ، كما يزعم «اصدقاء الشعب» ، فوق الطبقات ولكن هل مصالح الرأسمالية ، ايها السادة ، لا تتمثل عندنا في روسيا الا في «الدوما» ولا يمثلها الا «اصحاب الحانات» ؟ . .

اما الحملات القذرة ، فاننا قد رأينا منها وفرة طائلة عند السيد ميخايلوفسكي ، ونحن نلقاها من جديد عند السيد كريفنكو

الذي ، مثلا ، رغبة منه في القضاء على الاشتراكية-الديموقراطية المقيتة ، يروي ان «بعضهم يروح الى المصانع (لكن فقط حين تتوافر فيها مناصب جيدة للفنيين والمستخدمين) ، معللا دخوله بمجرد فكرة التعجيل بالتطور الرأسمالي» ولا حاجة بالطبع الى الجواب عن حجج غير لائقة اطلاقاً كهذه كل ما يمكن هنا ، وضع نقطة الانتهاء

واصلوا ، ايها السادة ، بالروح نفسها ، واصلوا بجرأة ! فان الحكومة الامبراطورية ، اي تلك الحكومة التي ، كما سمعنا منكم للتو ، قد اتخذت التدابير (وان ناقصة) لانقاذ الشعب من الخراب النهائي ، ستتخذ الآن تدابير خالية من كل نقص لانقاذكم من ادانتكم بالابتذال والجهل ان «المجتمع المثقف» سيواصل بكل طيبة خاطر الحديث عن الاخوة الصغار ، كما في السابق ، في الفترة الواقعة بين فطائر سمك الزجر وبين المائدة الخضراء ، ويبني المشاريع الانسانية «لتحسين» اوضاعهم ؛ وبكل سرور سيعرف منكم ممثلوه انهم اذ يشغلون مناصب الزيمسكييه ناتشالنيكي او غيرها من مناصب مر قبي جيب الفلاح ، انما يبدون ادراكا عالياً للحاجات والواجبات المدنية واصلوا ! فليس الاطمئنان وحده مؤمناً لكم ، بل الاستحسان والاطراء ايضاً من افواه السادة اضراب بورينين

وختاماً ، لن يكون من نافل الكلام ، كما يبدو لي ، ان اجيب عن سؤال خطر ، اغلب الظن ، في بال اكثر من قارئ واحد هل كان يجدر الحديث مطولا مع امثال هؤلاء السادة ؟ هل كان يجدر الجواب اصلا عن هذا السيل من الوحل الليبيرالي الذي يحظى بحماية الرقابة والذي تفضلوا وسموه بالمناظرة ؟

يخيل الي انه كان يجدر ذلك ، لا من اجلهم ، بالطبع ، ولا من اجل الجمهور «المثقف» ، بل من اجل العبرة المفيدة التي يمكن ويجب ان يستخلصها الاشتراكيون الروس لانفسهم من هذه الحملة ان هذه الحملة تقدم اوضح وابلغ دليل على ان مرحلة التطور الاجتماعي في روسيا ، المرحلة التي كانت تندمج فيها الديموقراطية والاشتراكية في كل واحد لا يتجزأ ولا يتزعزع ، (كما كان الحال ، مثلا ، في عهد تشيرنيشيفسكي) قد ولت الى الابد فالآن لم يبق اطلاقاً اي اساس للرأي الذي لا يزال قائماً هنا وهناك بين الاشتراكيين الروس ، مؤثراً اضر التاثير في نظرياتهم وفي نشاطهم العملي على السواء ، والذي يزعم انه لا يوجد في روسيا فرق عميق ، كيفي ، بين افكار الديموقراطيين وافكار الاشتراكيين

فالامر بالعكس تماماً فبين هذه الافكار هوة كاملة ، ولقد آن للاشتراكيين الروس من زمان ان يفهموا هذا ، ان يفهموا ان **القطيعة النهائية والتامة** مع افكار الديموقراطيين **امر محتم وضروري ضرورة ملحة** .

لنر بالفعل من كان هذا الديموقراطي الروسي في زمن نشوء الرأي المشار اليه ، ومن اصبح ان «اصدقاء الشعب» يقدمون لنا ما يكفي من المواد لاجراء هذه المقارنة .

انها لفائقة الطرافة بهذا الصدد حملة السيد كريفنكو على السيد ستروفه الذي انتقد في احدى المطبوعات الالمانية طوباوية السيد نيق . ــ ون (ظهر مقال السيد ستروفه «حول قضية التطور الرأسمالي في روسيا» ، Zur Beurtrtheilung der kapitalistischen Entwicklung Rußlands في „Sozialpolitisches Centralblatt“ III ، العدد الاول ، ٢ تشرين الاول ــ اكتوبر ــ ١٨٩٣ (٦٣)) . فان السيد كريفنكو يحمل على السيد ستروفه لأن هذا الاخير ينسب ، على حد قول السيد كريفنكو ، الى «الاشتراكية القومية» (التي هي ، حسب

تعبيره ، من «طبيعة طوباوية صرف») افكار اولئك الذين «يؤيدون المشاعة ومنح حصص الارض» ان هذه التهمة الرهيبة «بالاشتراكية» تثير في نفس الكاتب الاجل موجة طامية من الغضب المسعور ، فيزعق قائلا :

«ترى ، ألم يكن ثمة شخص آخر (غير هرتسن وتشيرنيشيفسكي والشعبيين) يدعم المشاعة ومنح حصص الارض ؟ اما مدبجو نظام الفلاحين ، الذين وضعوا المشاعة واستقلال الفلاح الاقتصادي في اساس الاصلاح ، اما بحاثة تاريخنا وظروف حياتنا الحاضرة الذين يؤيدون هذه المبادئ ، اما صحافتنا الجدية والرصينة كلها تقريباً ، التي تؤيد كذلك هذه المبادئ ، ـ أتراهم جميعهم ضحايا الضلال المسمى «الاشتراكية القومية» ؟»

اطمئن ، ايها السيد الاجل ، «صديق الشعب» ! لقد خفت من هذه التهمة الرهيبة بالاشتراكية الى حد انك لم تكلف نفسك حتى عناء قراءة «مقالة» السيد ستروفه «الصغيرة» بانتباه وبالفعل ، اي ظلم صارخ ان يتّهم بالاشتراكية اولئك الذين يؤيدون «المشاعة ومنح حصص الارض» ! عفواً ، ما هو الاشتراكي هنا ؟ فالاشتراكية انما هي الاحتجاج والنضال ضد استثمار الشغيلة ، النضال الذي يرمي الى القضاء التام على هذا الاستثمار ، بينما «تأييد منح حصص الارض» يعني ان المؤيد هو نصير التعويض المفروض على الفلاحين مقابل جميع الاراضي التي كانت سابقاً تحت تصرفهم وحتى اذا لم يؤيد المرء هذا التعويض ، بل أيّد التخلي للفلاحين بلا تعويض عن جميع الاراضي التي كانوا يملكونها قبل الاصلاح ، فليس في هذا بعد اي شيء اشتراكي على الاطلاق ، لأن هذه الملكية الفلاحية للارض (التي تكونت في سياق المرحلة الاقطاعية) هي التي كانت في كل مكان في الغرب ، كما في روسيا

ايضاً * ، اساس المجتمع البرجوازي و«تأييد المشاعة» اي الاحتجاج على التدخل البوليسي في الطرائق العادية لتوزيع الارض ، اي شيء اشتراكي هنا ، في حين يعرف كل امرئ ان استثمار الشغيل يبقى ويتوالد بروعة في قلب هذه المشاعة ؟ ان هذا يعني غلواً في تمديد كلمة «الاشتراكية» كان نصنف السيد بوبيدونوستسيف في عداد الاشتراكيين !

ان السيد ستروفه لا يقترف اطلاقاً مثل هذا الظلم الرهيب فهو يتحدث عن «طوباوية الاشتراكية القومية» التي نادى بها **الشعبيون** ؛ اما من ذا الذي يصنفه السيد ستروفه في عداد الشعبيين ، فهذا ما يتضح من كونه يسمي كتاب «خلافاتنا» لبليخانوف مناظرة مع الشعبيين لا ريب في ان بليخانوف ناظر الاشتراكيين ، ناظر اناساً لا يمتون باي صلة الى الصحافة الروسية «الجدية والرصينة» ولذا لم يكن للسيد كريفنكو اي حق في ان يأخذ على حسابه ما يعود الى الشعبيين اما اذا كان قد رغب في ان يعرف حتماً رأي السيد ستروفه في ذلك الاتجاه الذي ينتسب اليه هو نفسه ، فاني استغرب في هذه الحال كيف انه لم يلحظ **ولم يترجم لمجلة «روسكويه بوغاتستفو»** المقطع التالي من مقال السيد ستروفه :

«بقدر ما تسير الرأسمالية الى امام ، لا بد للمفهوم (الشعبي) عن العالم ، الذي وصفناه للتو ، ان يفقد تربته فاما ان ينحط (wird herabsinken) الى ميل شاحب نوعاً نحو الاصلاحات ، قادر على اجراء المساومات وساع وراء

---

* والدليل هو تمايز الفلاحين .

المساومات * ، الامر الذي تتوافر له الممهدات التي تتيح الأمل من زمان ، ــ واما ان يعترف بأن التطــور الفعلي امر محتــــم ، ويستخلص الاستنتاجات النظرية والعملية التي تنجم منـــــه بالضرورة ، اي انه ، بتعبير آخر ، يكف عن ان يكون طوباوياً»

واذا كان السيد كريفنكو لا يحزر اين تتوافر عندنا الممهدات لمثل هذا الميل القادر على اجراء المساومات وحسب ، فاني انصحه بأن يلقي النظر الى «روسكويه بوغاتستفو» ، الى ما تعرب عنه هذه المجلة من آراء نظرية ليست غير محاولة حقيرة للصـــق مقتطفات من المذهب الشعبي بالاعتراف بالتطور الرأسمالي في روسيا ، والى برنامجها السياسي الرامي الى تحسين وبعث استثمارات المنتجين الصغار على اساس النظم الرأسمالية الحالية **

---

* Ziemlich blasse kompromißfähige und kompromißsüchtige Re-formrichtung. وهذا ما يمكن ترجمته بالروسية كما يلي ، حسبمــا اظن الانتهازية التثقيفية

** ان محاولة السيد كريفنكو محاربــة السيد ستروفه تترك ، على العموم ، انطباعاً مؤسفاً وهذا نوع من عجز طفولي عن الاعتراض بشيء ما من حيث الاساس وهو كذلك غضب طفولي مثلا ، يقــول السيد ستروفه ان السيد نيق .ــ ون «طوباوي» ناهيك عن انه يبين بوضوح تام لماذا يطلق عليه هذا النعت ١ ــ لأنه يتجاهل «التطور الفعلي في روسيا» ؛ ٢ ــ لأنه يعتمد على «المجتمع» و«الدولة» غير مدرك طابع دولتنا الطبقي فهل يستطيع ان يرد السيد كريفنكو على هذا ؟ أتراه ينكر ان تطورنا هو في الواقع رأسمالي ؟ أتراه يقول انه تطور من نوع آخر ؟ ان دولتنـــا غير طبقية ؟ كلا ، انه يفضل تحاشي هذه الاسئلة اطلاقاً وشن الحرب ، بغضب مضحك ، على «كليشيهات» من تلفيقه هو بالذات مثال آخر ان السيد ستروفه يتهم السيد نيق .ــ ون بانه ، علاوة على عدم فهم النضال الطبقي ، يقترف اخطاء جسيمة في نظريته تتعلق بميـــــدان «الوقائـــــع الاقتصادية الصرف» . وهو يبين ، فيما يبين ، ان السيد نيق .ــ ون ، في

ان انحطاط الشعبية الى انتهازية برجوازية صغيرة هـــو بالاجمال ، ظاهرة من ابرز وادل ظواهر حياتنا الاجتماعيـــة في الآونة الاخيرة .

وبالفعل ، اذا اخذنا مضمون «روسكويه بوغاتستفو» ، اي جميع هذه النظم المتعلقـــة بضبط هجرة السكان في داخل البلد وباستئجار الاراضي ، وجميع هذه التسليفات الرخيصة والمتاحف والمستودعات والتحسينات التكنيكية والارتيلات ، واعمال الحراثة المشتركة ، لرأينا ان هذا البرنامج يتمتع فعلا بانتشار كبير جداً في عموم «الصحافة الجدية والرصينة» اي في عمـــوم الصحافـــة الليبيرالية التي لا تنتسب الى الصحف الاقطاعيـــة الوحي او الى الزواحف (٦٤) ان الفكرة القائلة بضرورة جميـــع هذه التدابير وفائدتها ، والحاحها و«عدم ضررها» قد مدت لها جذوراً عميقة عند جميع المثقفين وانتشرت انتشاراً فائق العادة فانتم تجدونها سواء في الجرائد والنشرات الاقليمية ام في جميع دراســـــات الزيمستفوات ، ومجموعاتها ، واوصافها ، وهكذا دواليك وهلمجراً

معرض كلامه عن ضآلة عدد السكان الذين لا يحترفون الزراعة في بلادنـــا ، «لا يلحظ ان التطور الرأسمالي في روسيا سيخفف بالضبط من هذا الفرق ٨٠٪ (سكان الريف في روسيا) و٤٤٪ (سكان الريف في اميركا) وفي هذا ، يمكن القول ، تتقوم رسالته التاريخية» اولا ، يحرف السيد كريفنكـــو هذا المقطع ، اذ يقول ان رسالت«نا» (؟) حرمان الفلاحين من الارض ، في حين ان المقصود بكل بساطة هو ميل الرأسمالية الى تخفيض عدد سكان الريف ، وثانياً ، لا ينبس ببنت شفة حول الاساس (هل يمكن ان تقوم راسمالية لا تؤول الى تقليل عدد سكان الريف ؟) بل يعمـــد الى الثرثرة بحماقـــات حول «الحرفيين» ، الخ . . انظر الملحق ٢ (الصفحة ٢٦١ من هذه الطبعة . **الناشر** .)

ولا ريب في اننا اذا اعتبرنا **هذا** هو الشعبية ، كان النجاح هائلا لا جدال فيه .

ولكن هذا ليس هو الشعبية على الاطلاق (بمعنى الكلمة القديم ، المألوف) وهذا النجاح وهذا الانتشار الهائل انما تحققا على حساب انحطاط الشعبية ، على حساب تحول الشعبية الاجتماعية الثورية ، المعارضة بعنف لليبيرالية ، الى انتهازية تثقيفية تندمج في هذه الليبيرالية ولا تعبر الا عن مصالح البرجوازية الصغيرة

ولكي نقتنع بهذا ، حسبنا ان نعود الى اللوحات المعروضة سابقاً عن تمايز الفلاحين والحرفيين ، مع العلم ان هذه اللوحات لا ترسم ابداً وقائع منعزلة او جديدة ، بل تشكل بكل بساطة محاولة لاعطاء تعريف اقتصادي-سياسي عن «مدرسة» «الضواري» و«الاجراء الزراعيين» التي لا ينكر حتى الاخصام وجودها في ريفنا ومفهوم ان التدابير «الشعبية» لا تستطيع غير ان تعزز البرجوازية الصغيرة ؛ او انها (الارتيلات واعمال الحراثة المشتركة) لا بد من ان تكون مسكنات موقتة بائسة وان تبقى مجرد تجارب حقيرة تغذيها البرجوازية الليبيرالية بمثل هذا اللطف في عموم اوروبا لسبب بسيط هو ان هذه التدابير لا تمس «المدرسة» بالذات على الاطلاق وللسبب نفسه ، لا يمكن حتى للسادة يرمولوف وفيتّه واضرابهما ان يملكوا اي حجة ضد امثال هذه الخطوات التقدمية . فالامر على العكس تماما تفضلوا ، ايها السادة ! بل انهم سيعطونكم مالا «من اجل التجارب» ، رغبة منهم في صرف «المثقفين» عن العمل الثوري (وقوامه الاشارة الى التناحر ، وايضاحه للبروليتاريا ، والسعي لنقل هذا التناحر الى طريق النضال السياسي المباشر) الى ترقيع التناحر هذا الترقيع ، الى المصالحة والاتحاد . تفضلوا ، ايها السادة !

لنتوقف قليلا عند هذا التطور الذي آل الى انحطاط الشعبية هذا الانحطاط ان هذه النظرية كانت ، عند نشوئها بالذات ، في مظهرها الاولي ، تنطوي على قدر كاف من الانسجام فقد كانت ، انطلاقاً من فكرة نمط الحياة الشعبية الخاص ، تؤمن بغرائز الفلاح «المشاعي» الشيوعية ، ولذا رأت في الفلاحين المناضل المباشر من اجل الاشتراكية ولكن هذه النظرية كانت تشكو نقصاً في الصياغة النظرية وكان يعوزها ، من جهة ، الدعم والتاكيد على وقائع الحياة الروسية ، وتعوزها من جهة اخرى ، التجربة في تطبيق برنامج سياسي يرتكز على خصال الفلاح المفترضة هذه

وهكذا تطورت النظرية في هذين الاتجاهين ، النظري والعملي اتجه العمل النظري ، بصورة رئيسية ، نحو دراسة شكل **ملكية** الارض الذي شاؤوا ان يروا فيه مقدمات الشيوعية ؛ وهذا العمل اعطى مادة واقعية في غاية الغنى والتنوع ولكن هذه المـــادة ، المتعلقة على الاخص بشكل **ملكية** الارض ، قد حجبت كلياً **اقتصاد** القرية عن عيون البحاثة . وقد حدث هذا بصورة طبيعية خصوصاً وان البحاثة لم يكن عندهم نظرية راسخة حول طريقة علـــم الاجتماع ، نظرية توضح ضرورة اخذ علاقـــات الانتاج على حدة ودراستها دراسة خاصة ، اولا ؛ وثانياً ، اعطت المادة الواقعية المجموعة اشارات جلية وسافرة الى امس حاجـــات الفلاحين ، الى امس البلايا والتي ترهق الاقتصاد الفلاحي فادح الارهاق وقد اقتصر انتباه البحاثة كله على دراسة هذه البلايا ، وقلة الارض ، والمدفوعات الباهظة ، والجور ، وضنى الفلاح وخبله وكل هذا تناوله الوصف والدرس والتوضيح مدعوماً بوثائق على درجة من الغنى ، وبتفاصيل على درجة من الصغر بحيث انه لو لم تكن دولتنا دولة طبقية ، ولوان سياستها لم تكن توجهها مصالح الطبقـــات الحاكمة ، بل البحث في «الحاجات الشعبية» بصورة غير متحيزة ،

لكان عليها بالطبع ان تقتنع الف مرة بضرورة القضاء على هذه البلايا ان البحاثة السذج ، المؤمنين بان من الممكن «تغيير رأي» المجتمع والدولة ، غرقوا تماماً في تفاصيل الوقائع التي جمعوها وغاب عن بالهم امر واحد ، هو التركيب السياسي الاقتصادي في القرية ، وغابت عن بالهم الخلفية الاساسية لهذا الاقتصاد الذي كانت ترهقه فعلا هذه البلايا الامس تأثيراً وكانت النتيجة ، بالطبع ، تكشف الدفاع عن مصالح الاقتصاد المرهق بقلة الارض ، الخ دفاعاً عن مصالح الطبقة التي تقبض بيديها على هذا الاقتصاد والتي كان في مستطاعها وحدها دون غيرها ان تبقى وتتطور في نطاق العلاقات الاقتصادية الاجتماعية المعنية **في داخل** المشاعة ، في ظل النظام الاقتصادي القائم في البلد

ان العمل النظري ، الذي ابتغى دراسة مؤسسة كان لا بد لها ان تكون اساساً ودعامة لمحو الاستثمار ، قد افضى الى وضع برنامج يعبر عن مصالح البرجوازية الصغيرة ، اي بالضبط عن مصالح الطبقة التي تعتمد عليها هذه النظم الاستثمارية !

وفي الوقت نفسه ، تطور العمل الثوري العملي كذلك في اتجاه غير متوقع اطلاقاً فان الايمان بغرائز الموجيك الشيوعية ، قد تطلب ، بالطبع ، من الاشتراكيين ان يقلعوا عن السياسة و«يذهبوا الى الشعب» . وعلى تحقيق هذا البرنامج انكب جمهور من المناضلين الزاخرين بالعزم والموهبة ؛ وقد اقتنع هؤلاء في الواقع بسذاجة الفكرة القائلة بغرائز الموجيك الشيوعية فقرروا ، مثلا ، ان القضية لا تنحصر في الموجيك ، بل في الحكومة ، ولذا وجهوا كل جهودهم نحو النضال ضد الحكومة ، وهذا النضال خاضه آنذاك المثقفون وحدهم مع **العمال** الذين كانوا ينضمون اليهم احياناً في البدء ، خيض هذا النضال في سبيل الاشتراكية استناداً الى نظرية تقول ان الشعب مستعد للاشتراكية وانه يمكن بمجرد الاستيلاء على

السلطة ، لا القيام بالثورة السياسية وحسب ، بل ايضاً بالثورة الاجتماعية وفي الآونة الاخيرة ، شرعت هذه النظرية ، كما يبدو ، تفقد كل ثقة ، وشرع نضال النارودوفوليين ضد الحكومة يتحول الى نضال الراديكاليين في سبيل الحرية السياسية .

ومن جهة اخرى آل العمل بالتالي الى نتائج تناقض تماماً نقطة انطلاقه ؛ ومن جهة اخرى ، نجم عنه برُنامج لا يفصح الا عن مصالح الديموقراطية البرجوازية الراديكالية وحقاً نقول ان هذا المجرى لم يبلغ نهايته بعد ، ولكن معالمه قد تحددت كلياً ، على ما يبدو ان هذا التطور الذي عرفته الشعبية كان طبيعياً ومحتماً تماماً لان مذهبها كان يرتكز على فكرة خرافية صرف بشأن نظام خاص (مشاعي) يختص به الاقتصاد الفلاحي وقد تبددت هذه الخرافة عند اصطدامها بالواقع ، وتحولت الاشتراكية الفلاحية الى تمثيل راديكالي ديموقراطي للفلاحين البرجوازيين الصغار

وانتقل الى امثلة عن تطور الديموقراطي :

يقول السيد كريفنكو «يجب الحرص على ان لا يصير المحب لعامة الانسانية غبياً على مستوى عامة روسيا يطفح بفوران غامض من العواطف الطيبة فقط ، ولكنه عاجز عن التفاني الحقيقي ، وعن الاتيان بشيء ما راسخ في الحياة» الدرس الاخلاقي ممتاز ؛ لنر على ما يطبق يواصل السيد كريفنكو قائلا : «في هذا المجال الاخير ، اعرف واقعاً مؤسفاً» : في جنوب روسيا كان يعيش شبان «تحركهم اطيب النوايا والحب للأخ الاصغـــر ؛ وكانوا يولون الموجيك (الفلاح) كل انتباه واحترام ؛ وكانوا يجلسونه في المرتبة الاولى تقريباً ، ويأكلون معه بملعقة واحدة ، ويقدمون له المربيات والحلويات ؛ ويدفعون له عن كل شيء اغلى مما دفع الآخرون ، ويعطونه مالا ، على سبيل القرض ، او «البخشيش» ، او هكذا بكل بساطة ؛ ويحدثونه عن النظام الاوروبي وجمعيات العمال ،

الخ وفي المحلة نفسها كان يعيش ايضاً شاب المانى اسمه شميدت ؛ كان مديراً لبستان او بالاصح بستانياً ، خالياً من اي افكار انسانية ، وذا روح المانية شكلية ضيقة حقيقية (كذا ؟؟!!) » ، الخ واذا بهؤلاء الشباب يتفارقون ، على حد قول الكاتب ، بعد اقامة في هذه المحلة دامت ٣ او ٤ سنوات ثم انصرمت ٢٠ سنة اخرى تقريباً وزار الكاتب المنطقة وعرف ان «السيد شميدت» (فان البستاني شميدت صار اسمه السيد شميدت نظراً لنشاطه المثمر) علّم الفلاحين زراعة الكروم وهي تدر عليهم الآن «بعض الدخل» ، ما بين ٧٥ روبلا و١٠٠ روبل في السنة ولذا بقي عنه «ذكر طيب» ، بينما «السادة الذين لم يكنوا للموجيك غير العواطف الطيبة ولم يفعلوا من اجله اي شيء جوهري (!) ، لم يبق عنهم حتى اي ذكر»

فاذا اجرينا حسابا ، تبين لنا ان الاحداث الموصوفة تعود الى سنتي ١٨٦٩ـ١٨٧٠ ، اي تقريباً الى نفس الزمن الذي تعود اليه المحاولات التي بذلها الاشتراكيون-الشعبيون الروس لكي ينقلوا الى روسيا الخاصية الاكثر تقدمية واهمية في «النظام الاوروبي» اي الاممية (٦٥)

وواضح ان تحدث حكاية السيد كريفنكو انطباعاً مفرطاً في الحدة ، فما كان منه الا ان اسرع وابدى التحفظات فهو يوضح قائلا :

«يقيناً اني لا اقصد بهذا ان اقول ان شميدت خير من هؤلاء السادة ، انما اقصد ان اقول انه رغم جميع نواقصه ، خلف مع ذلك اثراً ارسخ في المحلة المعنية وبين السكان (انا لا اقول انه خير ، ولكني اقول انه خلف اثراً ارسخ ـ ما هذه الحماقة ؟!) وانا لا اقول كذلك انه فعل شيئاً ما هاماً ، بل بالعكس ، فاني اورد ما فعله باعتباره نموذجاً لشيء تافه ، عرضي ، لم يكلفه فعله اي جهد او مال ، ولكنه شيء لا ريب في فعاليته وحيويته» .

هذا التحفظ ، كما ترون ، مبهم جداً ، ولكن جوهر الامر لا ينحصر في ابهامه ، بل في كون الكاتب ، اذ عارض عقم نشاط بنجاح نشاط آخر ، هو ابعد من ان يلاحظ ، كما هو جلي ، الخلاف الجذري بين اتجاهي هذين النوعين من النشاط . وهنا بيت القصيد الذي يجعل من هذه القصة قصة نموذجية ترسم سيماء الديموقراطي الحالي

والواقع ان هؤلاء الشبان الذين حدثوا الموجيك عن «النظام الاوروبي وجمعيات العمال» ، ارادوا ، كما هو جلي ، ان يحملوا هذا الموجيك على النهوض لكي يعيد بناء اشكال الحياة الاجتماعية (قد يكون استنتاجي هذا في الحالة المعنية خاطئاً ، ولكن كل امرئ يوافق معي ، كما اعتقد ، على انه استنتاج مشروع لأنه ينجم حتماً عن قصة السيد كريفنكو المذكورة اعلاه) ، ارادوا منه ان ينهض الى الثورة الاجتماعية ضد المجتمع الحالي الذي يولد هذا الاستثمار الشنيع وهذا الاضطهاد الصفيق النازلين بالشغيلة ــ الى جانب تهليل الجميع بشتى الخطوات التقدمية الليبيرالية اما «السيد شميدت» ، فان كل ما اراده ، بوصفه مالكاً حقيقياً ، هو ان يساعد الملاكين الآخرين على تدبير شؤون استثماراتهم ، لا اكثر . ولكن كيف يمكن اجراء مقارنة ، موازاة ، بين هذين النشاطين اللذين يناقض اتجاه احدهما اتجاه الثاني كلياً ؟ فهذا يعني كأن احدهم شرع يقارن فشل شخص يحاول تدمير مبنى معين مع نجاح شخص يريد تدعيم هذا المبنى ! فلاجراء مقارنة لها بعض المعنى ، كان ينبغي معرفة سبب الاخفاق الذي آلت اليه محاولة هؤلاء الشبان ممن ذهبوا الى الشعب لكي يحملوا الفلاح على النهوض من اجل الثورة ، ــ اوليس السبب في ان هؤلاء الشبان قد انطلقوا من فكرة خاطئة تزعم ان «الفلاحين» بالضبط هم ممثلو الشغيلة والسكان المستثمرين ، في حين ان الفلاحين لا يمثلون في الواقع طبقة خاصة (ــ وهذا وهم لا

يمكن تفسيره الا بتأثير وانعكاس عهد انهيار النظام الاقطاعي ، عهد برز الفلاحون فعلا **كطبقة** ، ولكن فقط كطبقة في مجتمع اقطاعي) ، لأن في صلبهم بالذات تتكون طبقتان البرجوازية والبروليتاريا ، ــ وبكلمة كان ينبغي تحليل النظريات الاشتراكية القديمة وانتقاد الاشتراكيين-الديموقراطيين لها ولكن السيد كريفنكو ، عوضاً عن هذا ، يبذل قصارى جهده لكي يبين ان فعل «السيد شميدت» «امر لا ريب في فعاليته وحيويته» عفواً ايها السيد المحترم للغاية «صديق الشعب» ، لماذا تقرع ابواباً مفتوحة ؟ من ذا الذي يشك في هذا ؟ زراعة كرم والحصول على دخل يتراوح بين ٧٥ و١٠٠ روبل ، ترى ، هل يمكن ان يكون ثمة في الواقع امر اكثر فعالية وحيوية ؟ *

وهكذا يعمد الكاتب الى التفسير قائلا انه اذا زرع ملاك كرماً في ارضه ، كان ذلك نشاطاً منعزلا ، واذا كانوا عدة ملاكين ، كان ذلك نشاطاً معمماً ومنتشراً ، يحول امراً صغيراً الى امر حقيقي ، صحيح ، **كما** فعل ، **مثلا** ، انغلهاردت الذي لم يستخدم الفوسفوريت في ارضه وحسب ، بل حمل غيره على استخدامه .

فما اروع هذا الديموقراطي ، أليس كذلك ؟

لناخذ مثالا آخر من ميدان الاحكام الخاصة بالاصلاح الفلاحي . فاي موقف وقفه منه تشيرنيشيفسكي ، الديموقراطي من العهد المشار اليه اعلاه ، عهد كانت الديموقراطية غير مفصولة عن

---

* لماذا لم تحاولوا ان تدسوا اقتراحاً بهذا الامر «الفعال الحيوي» الى **هؤلاء** الشبان الذين حدثوا الموجيك عن الجمعيات الاوروبية ! فكيف يكون استقبالهم لكم ، وباي رد رائع كانوا قد ردوا عليكم ! ولطفقتم تخافون خوفاً مميتاً من افكارهم مثلما تخافون اليوم من المادية والديالكتيك ؟

الاشتراكية ؟ لم يكن في مقدوره ان يعرب صراحة وعلناً عن رأيه ، **فلزم الصمت** ، ولكنه لجأ الى المجازات والتشبيهـــات ووصف الاصلاح الجاري تحضيره الوصف التالي :

«لنفترض اني اهتممت باتخاذ التدابير لصيانة المؤن التي يتألف غداؤك من احتياطياتها بديهي اني اذا فعلت هذا ، حقاً وفعلا ، بدافع من عطفي عليك ، فذلك لأن حميتي استندت الى افتراض مفاده ان المؤن تخصك وان الغداء المعد لك منها صحي ونافع لك وتصور مشاعري حين اعرف ان المؤن لا تخصـك اطلاقاً وانه يجب عليك ان تدفع عن كل غداء محضر منها ثمناً ليس اغلى من قيمة الغداء وحسب (كتب هذا **قبل** الاصلاح . والسيد يوجاكوف واضرابه يؤكدون **الآن** ان المبدأ الاساسي الذي يقوم عليه الاصلاح هو تأمين الفلاحين !!) ، **بل انك لا تستطيع على العموم ان تدفعه دون ان تفرض على نفسك اقصى العسر والضيق . واي افكار تمر في رأسي بصدد هذه الاكتشافات الغريبة واي غرابة ؟ واي غبي كنت اذ اهتممت بأمر لا تتأمن الشروط لنفعه ! ومن ذا الذي يستطيع غير الغبي ان يهتم بصيانة الملكية في بعض الايدي ، دون ان يتأكد سلفاً من ان الملكية ستصل الى هذه الايدي وستصل بشروط نافعة ؟ الافضل ان تهلك جميع هذه المؤن التي لا تفعل غير ان تضر بالشخص الذي احبه ! الافضل ان تمنى بالاخفـــاق كل هذه القضيـــة التي لا تعود عليك الا بالخراب !»**

اني اشير بخاصة الى الفقرات التي تبين بأبرز شكل الفكرة العميقة والممتازة التي كوّنها تشيرنيشيفسكي عن الواقع المعاصر له ، وعن ماهية المدفوعات المفروضة على الفلاحين ، وعن التناحر بين الطبقات الاجتماعية الروسية ومن المهم الاشارة كذلك الى انه عرف كيف يعرض فى الصحافة الخاضعة للرقابة مثل هذه الافكار

الثورية الصرف وفي مؤلفاته غير الشرعية ، كتب الشيء نفسه ولكن دون مجازات وتشبيهات ففي «التمهيد للتمهيد» يقول فولغين (الذي على لسانه يعرض تشيرنيشيفسكي افكاره)

«لتنتقل قضية تحرير الفلاحين الى ايدي حزب الملاكين العقاريين فالفرق ليس كبيراً» * ؛ واذ يلاحظ محدث فولغين ان الفرق ، بالعكس ، هائل ، لأن حزب الملاكين العقاريين ضد منح الارض للفلاحين ، يجيب فولغين بلهجة قاطعة

«كلا ، ليس هائلا بل تافه . وانه ليكون هائلا لو يحصل الفلاحون على الارض بلا تعويض هناك فرق بين ان تأخذ من امرئ شيئا او ان تبقيه له . ولكن الامرين سيان اذا اخذت منه ثمن الشيء . ان خطة حزب الملاكين العقاريين لا تختلف عن خطة التقدميين الا من حيث انها ابسط واوجز . ولهذا فهي حتى احسن . اقل من المماطلات ، واغلب الظن ، اقل من الاعباء على الفلاحين . فمن من الفلاحين يملك مالا يشترى به الارض لنفسه . ومن منهم لا يملك مالا ، لا فائدة من اجباره على شرائها . فان هذا لن يؤدي الا الى خرابه التعويض مثل الشراء ، كلاهما الشيء نفسه»

لقد كان لا بد بالضبط من عبقرية تشيرنيشيفسكي لفهم الطابع البرجوازي الاساسي الذي اتسم به الاصلاح الفلاحي في عهد تحقيقه بالذات (في حين انه لم يكن اتضح بعد كفاية حتى في الغرب) ، لفهم هذا الطابع بمثل هذا الجلاء ، لفهم ان الطبقات الاجتماعية التي تناصب الكادحين العداوة المستحكمة والتي كانت تهيئ حتماً لخراب الفلاحين وانتزاع املاكهم هي التي كانت تسود وتحكم آنذاك في «المجتمع» الروسي و«الدولة» الروسية . وفضلا

---

* انقل هذه الفقرة عن مقال بليخانوف: «ن . غ تشيرنيشيفسكي» في «سوسيال-ديموقراط» (٦٦) .

عن ذلك فهم تشيرنيشيفسكي ان وجود حكومة تستر علاقاتنا الاجتماعية المتناحرة هو شر رهيب يؤزم اوضاع الشغيلة بحدة خاصة . ويواصل فولغين قائلا :

«وحقا نقول انه من الافضل تحريرهم بلا ارض» (وهذا يعني اذا كان الاقطاعيون الملاكون العقاريون يتمتعون في بلادنا بمثل هذه القوة ، فمن الافضل ان يعملوا بصورة سافرة ، صريحة ، ويبسطوا فكرتهم الى النهاية بدلا من ان يستروا هذه المصالح الاقطاعية نفسها تحت ستار من مساومات حكومة مطلقة منافقة)

«القضية موضوعة على نحو بحيث اني لا اجد سببا لكي احتد حتى لمعرفة ما اذا كان الفلاحون سيحرّرون ام لا ؛ وبالاحرى لمعرفة من الذين سيكونون محرريهم ، الليبيراليون ام الملاكون العقاريون . فالامران سيان برأيي . بل الملاكون العقاريون افضل».

ومن «رسائل بلا عنوان» **«يتحدثون عن تحرير الفلاحين فأين القوى لهذا الغرض ؟ انها غير موجودة بعد . ولا يجوز الشروع بأمر عندما لا تكون ثمة قوى من اجله . وانظروا الى ما تسير الامور : يأخذون في التحرير . اما ماذا ينجم ، فاحكموا عليه بانفسكم : ماذا ينجم عندما تشرع في امر لا تستطيع فعله . وانت اذ تفسد القضية ، تقترف خساسة»** (٦٧)

لقد ادرك تشيرنيشيفسكي ان الدولة الاقطاعية والدواوينية الروسية عاجزة عن تحرير الفلاحين ، اي عن الاطاحة بالاقطاعيين ، وان كل ما تستطيعه هو اقتراف «خساسة» ، واجراء مساومة حقيرة بين مصالح الليبيراليين (التعويض مثل الشراء ، كلاهما الشيء نفسه) ومصالح الملاكين العقاريين ، مساومة تخدع الفلاحين بسراب من اليسر والحرية ، بينا تخربهم في الواقع وتضعهم كلياً تحت رحمة الملاكين العقاريين . وقد احتج ، ولعن الاصلاح ،

متمنياً له الاخفاق ، متمنياً ان تتلبك الحكومة في رقصها على الحبال بين الليبيراليين والملاكين العقاريين ، وان يؤول الامر الى افلاس يدفع روسيا الى طريق النضال الطبقي السافر .

اما «ديموقراطيو»نا المعاصرون ، فانهم **الآن** ، وقد اصبحت تنبؤات تشيرنيشيفسكي العبقرية امراً واقعاً ، ودحضت مرحلة تاريخية من ٣٠ سنة بلا هوادة شتى الاوهام الاقتصادية والسياسية ، يمدحون الاصلاح ويعتبرون انه جاء تصديقاً للانتاج «الشعبي» ويجدون الوسيلة لكي يستقوا منه برهاناً على امكان سلوك طريق **تتحاشى** الطبقات الاجتماعية المعادية للشغيل واني اكرر قولي ان الموقف من الاصلاح الفلاحي اسطع برهان على ان ديموقراطيينا قد تبرجزوا بشكل عميق ان هؤلاء السادة لم يتعلموا شيئاً ونسوا اشياء كثيرة وكثيرة

وعلى سبيل المقارنة ، آخذ «اوتيتشيستفينيه زابيسكي» لعام ١٨٧٢ لقد سبق واوردت مقتطفات من مقال «البلوتوقراطية وأسسها» بصدد النجاحات في حقل الليبيرالية (التي تموه المصالح البلوتوقراطية) ، هذه النجاحات التي احرزها المجتمع الروسي في العقد الاول من السنين بعد الاصلاح «التحريري الكبير»

فقد كتب الكاتب نفسه في المقال نفسه من قبل ، كان المرء كثيرا ما يلتقي باناس ينوحون بشان الاصلاحات ويبكون على الماضي ؛ اما اليوم ، فلا وجود لهؤلاء «الجميع اعجبتهم النظم الجديدة ، الجميع ينظرون بفرح واطمئنان» ، وفيما بعد يبين الكاتب كيف ان الادب ، هو ايضاً ، «جعل نفسه لسان البلوتوقراطية» بدفاعه عن المصالح والاطماع البلوتوقراطية «تحت ستار الديموقراطية» تفحصوا هذا الرأي بمزيد من الانتباه . ان الكاتب غير راض لأن «الجميع» راضون عن النظم

الجديدة التي اوجدها الاصلاح ، ولأن «الجميع» (ممثلي «المجتمع» و«المثقفين» طبعاً ، لا الشغيلة) مرحون ومطمئنون ، رغم ما تتسم به هذه النظم الجديدة من سمات برجوازية متناحرة بارزة ان الجمهور لا يلحظ ان الليبيرالية لا تفعل غير ان تموه «حرية الكسب» وطبعاً ، الكسب على حساب جماهير الشغيلة ولما فيه ضررها وهو يحتج وهذا الاحتجاج ، الملازم للاشتراكي ، هو الذي يشكل الناحية القيمة في مناقشته لاحظوا ان هذا الاحتجاج على البلوتوقراطية المستورة وراء ستار الديموقراطية ، يناقض النظرية العامة التي تنادي بها المجلة فان محرريها ينكرون ان يكون في الاصلاح الفلاحي اي ظروف وعناصر ومصالح برجوازية ، وينكرون الطابع الطبقي الذي يتصف به المثقفون الروس والدولة الروسية ، وينكرون وجود تربة للرأسمالية في روسيا ،ـ ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون ان يمتنعوا عن الشعور بالعنصر الرأسمالي والبرجوازي ولمسه لمس اليد . وبقدر ما شعرت «اوتيتشيستفينيه زابيسكي» بالتناحر في صلب المجتمع الروسي وحاربت الليبيرالية البرجوازية والديموقراطية البرجوازية ، بقدر ما اشتركت في العمل الذي قام به جميع اشتراكيينا الاوائل الذين لم يستطيعوا ان يفهموا هذا التناحر ولكنهم مع ذلك احسوا به وارادوا ان يناضلوا ضد تنظيم المجتمع ، ضد هذا التنظيم الذي يولد التناحر ؛ـ وبقدر ما كانت «اوتيتشيستفينيه زابيسكي» تقدمية (بديهي من وجهة نظر البروليتاريا) ان «اصدقاء الشعب» نسوا هذا التناحر ، وفقدوا كل احساس بواقع ان البرجوازيين الصرف يختفون «وراء ستار الديموقراطية» عندنا ايضاً ، في روسيا المقدسة ؛ ولهذا فهم الآن رجعيون (حيال البروليتاريا) لأنهم يموهون التناحر ، ولا يتحدثون عن النضال ، بل عن النشاط التوفيقي التثقيفي الصرف .

ولكن ، ايها السادة ، هل الليبيرالي الروسي ذو الجبهة الناصعة ، الممثل الديموقراطي للبلوتوقراطية في الستينيات ، قد كف ، يا ترى ، عن ان يكون مفكر البرجوازية في التسعينيات لمجرد ان جبهته قد حجبها ظل أسى مدني ؟

وهل تكف «حرية الكسب» بمقاييس كبيرة ، حرية كسب التسليفات الكبيرة والرساميل الكبيرة والتحسينات التكنيكية الكبيرة عن ان تكون حرية ليبيرالية اي برجوازية اذا لم تتغير العلاقات الاجتماعية الاقتصادية المعنية ، لمجرد ان تحل محلها حرية كسب التسليفات الصغيرة والرساميل الصغيرة والتحسينات التكنيكية الصغيرة ؟

واكرر قولي انهم لم يغيروا رأيهم بتأثير تبدل جذري في النظرات او بتأثير انقلاب جذري في نظمنا كلا انما بكل بساطة نسوا

ان «اصدقاء الشعب» الذين فقدوا هذه السمة الوحيدة التي جعلت اسلافهم فيما مضى تقدميين ، رغم كل وهن نظرياتهم ورغم سذاجة وطوباوية نظراتهم الى الواقع ، لم يتعلموا شيئاً على الاطلاق في كل هذه الحقبة من الزمن والحال ان تاريخ روسيا السياسي في هذه السنوات الثلاثين ، حتى بصرف النظر عن التحليل السياسي والاقتصادي للواقع الروسي ، كان لا بد له وحده ان يعلمهم اموراً كثيرة

آنذاك ، في عهد **الستينيات** كانت قوة الاقطاعيين قد اصيبت بكسر فقد منوا بهزيمة كانت في الحقيقة غير نهائية ، ولكنها كانت مع ذلك حاسمة بحيث انهم اضطروا الى التواري عن المسرح . اما الليبيراليون ، فعلى العكس ، فقد رفعوا رؤوسهم واذا طوفان من الجمل الليبيرالية عن التقدم والعلم والطيبة والنضال ضد الجور ، وعن المصالح الشعبية ، والضمير الشعبي والقوى الشعبية ، وهكذا دواليك وهلمجراً ، اي نفس الجمل التي لا يزال يتقيأ بها الآن ،

في لحظات الكآبة الشديدة ، اصحابنـــا البكاؤون الراديكاليون في صالوناتهم ، واصحابنا منمقو الجمل الليبيراليون في مآدبهم اليوبيلية وعلى صفحات مجلاتهم وجرائدهم وقد تبين ان الليبيراليين لعلى درجة من القوة بحيث انهم عدلوا «النظم الجديدة» على طريقتهم ، لا كلياً ، بالطبع ، بل الى حد كبير . ومع ان «ضوء النضال الطبقي السافر» لم يكن له وجود آنذاك ايضاً في روسيا ، الا ان الحال كان مع ذلك اجلى مما هو عليه الآن ، بحيث ان حتى مفكري الطبقة الكادحة ممن لم يكن عندهم اي فكرة عن هذا النضال الطبقي وفضلوا الحلم بمستقبل افضل على **تفسير** الحاضر المقيت ، حتى هؤلاء لم يستطيعوا الا يروا ان البلوتوقراطية تختفى وراء الليبيرالية وان هذه النظم الجديدة هي نظم برجوازية . وان ما كان يتيح رؤية هذا انما هو بالضبط تواري الاقطاعيين عن المسرح ، دون ان يصرفوا الانتباه عن شرور حالية اشد بروزاً ، او يحولوا دون رؤيـــة النظم الجديدة في مظهرها الصافي (نسبياً) ولكن ديموقراطيينا في ذلك العهد ، الذين استطاعوا ان يشجبوا الليبيرالية البلوتوقراطية ، لم يستطيعوا مع ذلك ان يفهموها ويفسروها تفسيراً علمياً ، لم يستطيعوا ان يفهموا ضرورتها في نطاق التنظيم الرأسمالي لاقتصادنا الاجتماعي ، لم يستطيعوا ان يفهموا تقدمية نمط الحياة الجديد هذا بالقياس الى نمط الحياة القديم ، الاقطاعي ، لم يستطيعوا ان يفهموا الدور الثوري للبروليتاريا التي يلدها النمط الجديد ، بل اكتفوا «بالتأفف» من هذه النظم ، نظم «الحرية» و«الانسانية» ، واعتبروا طابعها البرجوازي شيئاً عرضيـــاً ، وانتظروا علاقات اجتماعية ما اخرى لا بد لها ان تتكشف ايضاً في «النظام الشعبي» .

ولكن ها هو التاريخ يبيـن لهم هذه العلاقات الاجتماعيـــة الاخرى فان الاقطاعيين ، الذين لم يسحقهم كلياً ذلك الاصلاح المشوه تشويهاً فاضحاً خدمة لمصالحهم ، قد انتعشوا (لساعة)

وبينوا بوضوح ما هي هذه العلاقات الاجتماعية الاخرى عندنا ، الى جانب العلاقات البرجوازية ، وبينوا في شكل رجعية منفلتة وخرقاء ووحشية الى حد ان ديموقراطيينا خافوا ولزموا الصمت ، وعوضاً عن ان يسيروا الى امام رافعين الى مستوى الاشتراكية- الديموقراطية ديموقراطيتهم الساذجة التي استطاعت ان تحس بالطابع البرجوازي ولكنها لم تستطع ان تفهمه ، ساروا الى الوراء ، نحو الليبيراليين ، وهم يتفاخرون اليوم بان نواحهم اي ، اردت ان اقول ، نظرياتهم وبرامجهم ، تشاطرها «كل الصحافة الجدية والرصينة» وكان يبدو ان الدرس كان بالغ الدلالة فان وهم الاشتراكيين القدامى حول نظام الحياة الشعبية الخاص وحول غرائز الشعب الاشتراكية وحول طابع الرأسمالية والبرجوازية العرضي ، قد صار واضحاً للغاية ، كما كان من الجائز الظن بانه اصبح من الممكن الآن النظر الى الواقع وجهاً لوجه والاعتراف صراحة بأنه لم توجد ولا توجد في روسيا اي علاقات اجتماعية اقتصادية غير العلاقات البرجوازية وغير العلاقات الاقطاعية بسبيل الزوال ، وانه لا يمكن بالتالي ان يكون ثمة سبيل الى الاشتراكية غير الحركة العمالية ولكن هؤلاء الديموقراطيين لم يتعلموا شيئاً ، والاوهام الساذجة التي غذتها الاشتراكية البرجوازية الصغيرة اخلت المكان لحكمة التقدم البرجوازي الصغير العملية .

ان نظريات مفكري البرجوازية الصغيرة هؤلاء هي الآن رجعية تماماً حين يبرزون بوصفهم ممثلي مصالح الشغيلة فهم يطمسون التناحر في صلب العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الروسية الحالية ، ويتفلسفون كأنه يمكن تدبير الامور بتدابير عامة تقصد ارضاء الجميع وتأمين «النهوض» ، «التحسين» ، الخ . ، كأنه يمكن التوفيق والتوحيد . انهم رجعيون لأنهم يصورون

دولتنا شيئاً ما فوق الطبقات ، وبالتالي اهلا وقادرة على ان تقدم للسكان المستثمرين مساعدة جدية وشريفة نوعاً ما

انهم رجعيون لأنهم ، اخيراً ، لا يفهمون اطلاقاً ضرورة النضال والنضال المستميت من جانب الشغيلة انفسهم في سبيل تحررهم ومن اقوال «اصدقاء الشعب» يظهر ، مثلا ، انهم قادرون هم بالذات على تدبير الامور كلها ففي وسع العمال ان يطمئنوا فان فنياً قد جاء الى هيئة تحرير «روسكويه بوغاتستفو» وكادوا يضعون معه ، بصورة كلية ، «ترتيباً» من اجل «ادخال الرأسمالية في حياة الشعب» فعلى الاشتراكيين ان يقطعوا **بشكل حاسم ونهائي** كل صلة بجميع الافكار والنظريات البرجوازية الصغيرة ، **ذلك هو الدرس النافع الرئيسي** الذي يجب استخلاصه من هذه الحملة

ارجو ان تلاحظوا اني اتكلم عن القطيعة مع الافكار البرجوازية الصغيرة لا مع «اصدقاء الشعب» ولا مع افكارهم ، لأنه لا يمكن ان تحدث القطيعة مع ما لم تكن معه اي صلة قط ان «اصدقاء الشعب» ليسوا سوى فريق في عداد غيرهم من ممثلي واحد من اتجاهات هذا النوع من الافكار الاشتراكية البرجوازية الصغيرة واذا كنت ، بصدد هذه الحالة ، اخلص الى القول بضرورة القطيعة مع الافكار الاشتراكية البرجوازية الصغيرة ، مع افكار الاشتراكية الفلاحية الروسية القديمة **بوجه عام** ، فذلك لأن الحملة الحالية التي يشنها على الماركسيين ممثلو الافكار القديمة الذين خافوا من نمو الماركسية ، قد دفعتهم الى صياغة الافكار البرجوازية الصغيرة صياغة كاملة وبارزة بشكل خاص ونحن اذ نقارن هذه الافكار مع الاشتراكية الحالية ، مع المعطيات الحالية عن الواقع الروسي ، نرى بجلاء مدهش الى اي حد جفت هذه الافكار ، وكيف فقدت كل اساس نظري منسجم ، وهبطت الى مستوى اختيارية حقيرة ،